السيرة الذاتية لشعبانوف

السيرة الذاتية لشعبانوف

مجموعة قصصية

حسام قنديل

للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: السيرة الذاتية لشعبانوف
اسم الكاتب: حسام قنديل
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد إبراهيم
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 / 10409
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 85706 – 6 – 3

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
facebook Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

الإهداء

إلى كل من آمن – بدون سبب – أن ذاك الصامت غريب الأطوار لديه ما يقول على أوراقه..

إهداء خاص

نحن بعض من أيام بعض..

رُسمت أغلبُ شخصياتِ هذه المجموعة عبر تفاصيل حوارات يومية مزجت عميق خبرات صديق شاركني مكتبي لعام كامل بثنايا ذكرياتي، فخلَقت عالمًا خيالي الأحداثِ تسكنه شخصياتٌ حقيقيةٌ جدًا..

و لولا حبي لتركيبة شخصية "شعبانوف"، لكان عنوانُ هذهِ المجموعةِ "حوارات الورداني" إشارةً للصديق الذي شاركني – دون أن يدري – متعة كتابة تلك المجموعة "عبد الله الورداني"..

تشنيكة (قصة قصيرة جدًا)

أرغب في الحديث إليك منذ شهور لأخبرك أمرًا هامًا، و ها نحن تلاقينا في الردهة كالعادة فحيينا بعضنا بـ"تشنيكة" (رفع عضلة الأنف مع الحاجبين) عابرة.

تحية منطقية لمن لا يعرفون بعضهم البعض، لكن أمرًا مهمًا يسقُطُ مرارًا فأفشلُ بامتياز كل مرة في قول ما أريد قوله رغم حثيث محاولاتي..

أخيرًا أمسكت بخيط هذه المرة، خيطٌ يبدأ بذكر أحد عيوبي. كنت في محاضرة منذ قليل، و أنا ذو تركيزٍ مزرٍ عندما أتلقى محاضرة.. حاولت التغلب على هذا العيب بمحاولة مجاراة ما يقوله المحاضر بتخيله مصورًا.. أو أسقاطه على شخص.. اليوم، كان يقول أن الترتيب المنطقي لحدوث الأشياء هو أن يفكر الإنسان ثم يأتي بتصرف ما.. و الشيء الوحيد الذي أفكر فيه عندما نتلاقى صدفة هنا و هناك لثواني معدودة، و أرغب أن آتي بتصرف إخبارك به منذ أشهر هو "أنك جميلة"..

فقط..

أراك مرة أخرى.

فقاقيع

الأزرق هو لون الجو العام للشركة، لذا يجب أن يغلب على تفاصيل ثيابه الرسمية، فهو واجهة مثالية لمكان يقضي فيه أغلب يومه.

قميصٌ سماوي هادئ يحمل خطوطًا بيضاء طولية مع ربطة عنق زرقاء داكنة مربوطة بعناية تحت بذلة كحلية اللون. اللون الكحلي كالرمادي والأسود، يمنح المصداقية كما عرف في تدريبٍ رُشّح له منذ سنة.. لمسات إضافية ثابتة تتمثل في حذاء لامع، قلمه الفاخر الذي يحمل شعار الشركة، بالإضافة لدبوس الجيب الذي يحمل الشعار ذاته، و يبالغ رشاد في التمسك بوجوده لدرجة أنه صدّق أن جزءً من اتزان أداءه الوظيفي والاجتماعي يرتبط بوجود ذلك الدبوس، تمامًا كما يرتبط البطل الخارق بمصدر قوته.

رغم أن مناسبة عزاء زميل توفاه الله اليوم لم تكن تتعلق بعمله مباشرة، إلا أن رشاد جرّ الحدث إلى فقاعته المصبوغة بتفاصيل عمله الذي يقدسه ويُخلص لانتمائه له بلا حدود، حتى أصبح المحرك الرئيسي لحياته الشخصية.. فهو يتنفس شركته، ويتحدث عنها بدون توقف، و يتكلّف الكثير من التصرفات التي تربطه بها، حتى أن أصدقائه التلقائيين باتوا

ينفرون من وجوده بسبب كمية الـ "نشا" التي يُشعُّها، مذكرًا إياهم أنه استحق انتماءً يجعله أعلى درجة من التواجد وسط أمثالهم من الرعاع.

***

وصل رشاد إلى العزاء بعد أن اصطحب "يسرا" زميلته لتوفير مكان سيارة في موقع العزاء بمسجد الشرطة بطريق صلاح سالم، حيث أماكن صف السيارات محدودة جدًا ما اضطره إلى الدوران يمينًا حتى الوصول إلى سور يقابل مسرحًا مهجورًا أُغلق منذ سنوات، نَفح الـ "سايس" عشر جنيهات للعناية بسيارته الفارهة التي تحمل ملصق شعار الشركة، و لم يفته أن يلفت نظر السايس إلي أنها سيارة تنتمي لشركة ذات اسم رنان و يجب أن تنال معاملة خاصة..

حماسه في جملته التي استمرت ثوان معدودة تزامن مع عدو مجموعة من الأطفال الذين لم يتجاوز سنهم الخمس إلى السبع سنوات عبر مكان وقوفه، و بشكل تلقائي ضربه أحدهم على مؤخرته، و رفع آخر تنورة يسرا و صرخ ثالث و المجموعة تلوذ بالهرب "كـــــ...### أمك"..

***

لا يبدوا وليد في حالة طبيعية منذ بضعة أشهر، تأكد رشاد من ذلك عندما ساقته الصدفة للجلوس إلى جواره في قاعة العزاء.. تَوتّره بعد محاولته

احتواء ذعر يسرا من حادثة الطفل المتحرش لم يُسقط من ذهنه قراره أن يفاتح وليد في حالته النفسية السيئة وما تلقيه على جو العمل في الشركة من سلبية يحاول أن يُجنّبَ الموظفين الوقوع في براثنها حتى لا تؤثر على صورة الشركة عند التعامل مع عملائها الذين يكاد رشاد يعبدهم.

رد وليد عندما فاتحه رشاد في الأمر بعد العزاء لم يختلف كثيرًا عن رد فعل الطفل عاري النصف الأسفل الذي سب رشاد منذ لحظات، إلا أنه اختلف في صدوره من واع بالغ يدرك معنى السُّبة، و كيفية صياغة سلسلة متصاعدة متناغمة منها، ما جعل رشاد – مدير الموارد البشرية في الشركة – يبتعد ذعرًا، حتى أنه نسي "يسرا" التي ارتبط بتوصيلها للمنزل، و لم تتحمس بدورها للعودة معه بسبب جرعة التكلف التي نالتها، بالإضافة لمشاركته إيها الخبرة غير السارة عندما رُفعت تنورتها المحتشمة من طفل لا غريزة له تجعله يدرك معنى ما رأى عندما قام بفعلته.

الصوت المرتفع و السباب المقذع من وليد لرشاد جذب سليم لمحيط المشاجرة المحدودة التي انتهت بخروجهما من مجال البصر تاركين "يسرا" تحاول طلب "أوبر"، لكنها أغلقت التطبيق عندما عرض سليم توصيلها.. حكت له ما حدث في طريقهما إلى سيارته متعجبة من المشاجرة القصيرة العنيفة في غير مقام المشاجرات التي تحوى سبابًا مقذعًا:

"التفسير بسيط يا يسرا.. إدمان لفت الانتباه يُدخل من يدمنه لفقاعة مرعبة. كلنا نعزو ما يفعله رشاد، وما كان يفعله وليد من رقص على بوابات الكبار، و ما فعله الأطفال بكم – و هو طريف بالمناسبة – إلى الكثير من الأسباب الثانوية.. الكبر، الـ"تعريض"، الجوع للمميزات و المال، حب المناصب.. و نغفل عن السبب الرئيسي الذي لم ينتبه إليه غيري لأنني عبقري.. "الرغبة في لفت الانتباه".. يستوي فيه رشاد مع محسن رحمه الله، مع وليد و أمثاله ممن كانوا يلعقون أحذية نظام الحكم السابق مقابل امتيازات وحصانة وضعتهم في الصف الأول في شركتنا، الصف الذي ينال كل الانتباه، ثم فقدوها بديهيًا ليجدوا نفسهم في الصف الرابع بدلًا من الصف الأول، مع رسالة واضحة من النظام الجديد أنهم لم يظلوا في الصف الرابع أو الصورة أصلًا إلا ليتم مراقبتهم فقط.. لن يتقبل وليد مع حالة الإنكار المختلطة بالاكتئاب التي يمر بها منذ أشهر، أن يمارس مدمن لفت انتباه بأسلوب آخر كرشاد دور الناصح أو المنتقد له لأنه يرى فقاعته مازالت فعّالة.. الرغبة في لفت الانتباه التي صنعت كل ما فسرته لك ، هي ذاتها ما جعلتك تبذلين وقتًا و مجهودًا للاعتناء المبالغ فيه بأظافرك وأنت في طريقك لعزاء، فينتبه الجميع أنك أنثي سليمة الصحة..

لفت الانتباه يا عزيزتي.. الغريزة الجديدة التي خلقت ملايين الفقاعات التي يصدّق فيها بشر أنفسهم حتى أنهم يتوقعون أن الجميع يدورون في فلكهم، ثم بقانون محتم.. تأتي صدمة كالتي تلقاها "محسن منصور" ذو السبعة والثلاثين عامًا وجعلتنا نحضر عزاءه.. خِطابٌ من الموارد البشرية مصاغ بعناية يخبره أن فقاعته التي جعلها عالمه بغباء نادر "فرقعت"، وتم فصله من الشركة لعدم الحاجة لخدماته، مما يحرمه أدوات لفت الانتباه أو بعبارة أخرى كل شيء، فـ "طب ساكت".. رد فعل شخص فقد كل شيء في لحظة، سيختلف بالتأكيد عن رد فعل طفل خالع لملابسه الداخلية، ويركض في الشوارع ليجد هائمًا لن تنتبه إليه إلا لو فعل ما فعل.. هذا الطفل الطريف لديه هو الآخر فقاعة ما ستنمو معه حتي يُقتل في مشاجرة أو يموت بجرعة مخدرات زائدة.. هل لاحظت كم مرة عدّل رشاد من وضع دبوس شعار الشركة..؟

كلنا خالعين لملابسنا الداخلية بغرض لفت الانتباه، و لكن بأسلوب مختلف.. تعريف الملابس الداخلية فقط هو ما يختلف".

لم تنتبه يسرا إلا لفقرة حديث سليم عن أظافرها رغم منطقية سرده لتفسيره الغريب، لكن العجيب أنها لم تغضب، ربما لأن عبارته الأخيرة أثبتت منطقها فوريًا مع الفرملة العنيفة التي نفذها سليم لتفادي السيارة

التي توقفت فجأة في وسط شارع الملك بحدائق القبة.. بدد احتمالية غضبها سائق سيارة الأجرة التي رمق صف السيارات التي تسبب في توقفها ببرود بعد نزل من سيارته المتوقفة في منتصف الطريق ليشتري سريعًا بضعة أرغفة من المخبز المفتوح، ثم يعود للسيارة مرة أخرى و يتابع السير..

كلنا خالعين لملابسنا الداخلية للفت الانتباه و خلق الفقاعة بشكل ما.. رددها سليم مرة أخرى بابتسامة واثقة و هو يشير إلى السائق..

الليلة الأربعمائة وستة وخمسون بعد الألف

بدأ الأمر ككل مرة.. عمّ سالم آت على دراجته النارية، يراه الجميع فيتحاشونه، و يتظاهرون أن نزوله المضحك من الدراجة لم يلفت نظرهم.. هو كملك الموت لابد أن تنتهي زيارته بمهندس مختارٍ للمناوبة الليلية التي يبيت فيها داخل المبنى كممثل لرئيس المدينة حال وقوع طارئ.. يجلس المختارُ في غرفةٍ شبه مجهّزة تقعُ خارج حدود مبنى جهاز المدينة، بجوار ملعب الكرة الذي ينتهي حده الشمالي بصف من أشجار تأوي الكثيرَ من الأشباح..

لو لم تسكن الأشباح هذه المنطقة فأين تسكن..؟

اخترت طوعًا أن أظهر نفسي لعم سالم مرّة، و لم أعترض على تكرار إسناد تلك المناوبات إليّ، فلم يُكذّب الرجل خبرًا وظل يمنحني ثلاث مناوبات أسبوعيًا لعامين متتاليين.. عم سالم يختار ضحاياه بمهارة – من غير المتزوجين – و أنا أثبت كوني ضحية رائعة بكوني لم أشتك..

ظللت مصدقًا أنني سأكون مهمًا هنا، تمامًا كما ظننت أن حبي لها كاف لبقائها إلى جواري مفترضًا قدرتها على فهمه..

أما سببي الحقيقي لقبول تلك الليالي، فهو حاجتي للحد الأدنى من الاتزان العقلي آنذاك، فحالة الهيام في الطرقات بسروال النوم، و الصراخ المعتوه باسمها في وجه كل من أراه كانت قريبة جدًا، و لا أعرف وسيلة فعالة إلا استحضار وجودها..

***

تمامًا كما لم أستطع انتزاعها من روحي، لم أنجح في تغيير طبعٍ توغل في نفسي.. أنا أصدّقُ كل شيء، مهما بدا ساذجًا، أو غير منطقي، أو حتى صَدَرَ ممن يقوله كوعدٍ عشوائي التخلص من وجودي. و لأني من النوع الخفيف جدًا الذي لا يفرض وجوده على أحد، حتّمت المعادلة أن تكون صدمات النزول إلى أرض الواقع عنيفة، لأنني أحبب أكثر من صدّقتهم، فاقتربت من قلائل حاولت صادقًا أن أنال مكانًا في مجال ثقتهم أو في حياتهم كصديق أو حبيب أو موجّه أو حتى تلميذ..

و اقتربت منها لأنها كانت ذاك الجزء المفقود من روحي..

هو خطأي إذن الذي يجب أن أتحمّل نتائجه.. و كنوع من التطهير أفردت لنتائج خطأي فصلًا من مذكراتي في ذلك اليوم.. فصلٌ ملكتُ كل ليل مناوبتي كي أورد فيه حكايات أنتويها عني فتنقلب عنها..!

ما الداعي لتلك المذكرات..؟ و لماذا أكتبها أصلًا..؟ و ما الذي سأنتهي إليه في نهاية تلك الصفحات..؟

لا يهم.. كما لن يهم عجزي عن وصف مصطلح الجزء المفقود من روحي..!

***

أي ليلة كانت..؟

لا يهم لكنها الليلة الأربعمائة و ستة و خمسون بعد الألف منذ آخر لقاء لي معها..

هي ليلة مناوبة عادية، لا يميزها عن أي ليلة إلا نوع الأمل في أنني سأراها ثانية. أملٌ أحاول أن غرسه في نفسي أولًا، ثم بكثير من البلاهة أصدقة وأعيش معه، حتى يقاطعنا – أنا و الأمل – رنين هاتف غرفة المناوبة عن طارئ عليّ إدراكه. صدّقت في البداية أن وجودي مهم لتدارك حالات الطوارئ كانقطاع المياه والكهرباء وحوادث الطرق.

وبالتبعية، صدّقت أن فريق الفنّيين الذين سيناوبون تحت أمرتي سيلتزمون بالوجود في غرفهم، ثم صدّقت أننا سنتصرف حقًا عند حدوث طارئ، وظللت مصدقًا حتى مع إثبات الواقع أننا موجودون هنا لمجرد سماع شكاوى سكان المدينة من باب سماع الفضفضة..

بعد عشرات المكالمات التقليدية، عن انقطاع الماء والكهرباء، والسؤال عن أسعار الوحدات السكنية، والشكوى من جيران يذبحون القطط لطلسمة أعمال سفلية تربط رجال المدينة.. جاءت المكالمة الأولى التي تستدعي الاهتمام في الحادية عشر مساءً.

كالعادة، بحثت عن طاقم العمل في غرفتهم فلم أجدهم. بدأت البحث فأتيت بأحدهم من قرب صف الأشجار و هو يمارس نشاط التلصص على سارقي المتعة ممن يختارون بقعة العفاريت تلك لممارسة ما يمارسون، وأتيت بالآخر من منزله، والثالث أيقظته طالبًا منه أن يتناول أي "زفت" يزيل أثر سجائر الحشيش التي يضربها طوال الليل..

لما توصل أربعين يا باشمهندس.. هاتعرف قيمة الحشيش، و تندم على إنك ضيعت سنينك من غيره..!

عندما أصل إلى الأربعين..! أي بعد اثني عشر عامًا من تلك الليلة، وهي الفترة التي عليّ انتظارها على أمل وعدٍ ألقتْهُ على مسامعي منذ أربع سنوات.. أخبرتني أنها ستعود لي عندما نصل إلى الأربعين.. بالنسبة لها، هو سنٌ مناسب كي تبدأ استكشاف حبها الأول والوحيد بشكل ناضج، لأنها موقنةٌ أن طريقة تعبيرها عما تشعر به نحوي إرهاصات مراهقين.. فصدقتها وانتظرت.

لن يكون لدي رفاهية الحشيش في الأربعين لأنني سأكون مشغولًا بتذكيرها بكل ما كان بيننا، وبكونها أول و آخر إيمان لي بالحب.. وبالتأكيد لن أندم على تضييع سنيني بدون حشيش، فلدي ما أضيع عمري هدرًا في سبيله و هو الانتظار، و لدي كذلك الكثير لأندم عليه..

المهم..

***

تجمع غير منطقي عند العمارة رقم ٥ في الحي السابع، ومناوشات ليلية ربما تكون نتيجة لصعق أعمدة الإنارة المفتوحة لأحدهم، أو سقوط آخر في بالوعة صرف فاغرة الفم. في طريقي إلى هناك، مرت في ذهني العمارة رقم ٥، استحضرت سمعتها منذ فترة بناءها التي حضرتها كمهندس مقيم، سمعةٌ ألقت في ذهني قائمة مصائب متوقعة خارقة للبرزخ يمكن أن تنتظرني عندما أصل.. منذ أربع سنوات سقط السقف و نحن نقوم بصبه، وغرق البدروم خمس مرات، وقُتل فيها غفيرٌ أخذًا بالثأر.

فيها كان لقائي الأخير معها، وقت أن طلبت مني الانتظار حتى نَبْلُغ الأربعين.. أذكر أنها أتت إليّ لساعة أثناء وقت العمل، تمام الواحدة و الثانية و الثلاثين دقيقة.. كانت ترتدي تنورة زيتية طويلة على قميص أبيض طويل الأكمام وحجاب له لون التنورة مع حذاء رياضي أبيض. لم أهتم بنظرات

المشرفين الخبيثة للشاب الذي يواعد فتاته تحت صبة خرسانة سقف الدور الأول.. لأنها كانت إن حضرت صارت هي عالمي بأكمله، حتى لو كانت هنا لتطلب مني ألّا نلتقي ثانية..

أما الآن وبعد هذا الحدث بأربع سنوات.. فهناك إفادة عن تجمهر غير مفهوم عند العمارة المشؤمة.. تجمع تطلّب أن أتواصل مع الرائد المناوب "أيمن"، ليكون على استعداد للحركة إن تطلب الأمر تواجده. تحركت سيارتنا في تمام الثانية عشر إلا ربع في اتجاه العمارة و شعار الجهاز الحكومي يلمع على جانبيها، وثلاثة فنيين انتُزعوا من مصدر متعتهم يشغلون مقاعدها، و أقودها بنفسي..

***

أضيف لتطيري من العمارة رقم ٥ في يوم مناوبتي ذاك تلك المرأة.. لم أعرف اسمها ولكنها بدت كغيلان الأساطير وهي تقف أمام العمارة موجهةً ألفاظًا لم أتخيل وجودها لرجل يقف أمامها بملابس النوم. المرأة تقطع سيل السباب كل فترة و تستجمع قوتها محاولةً الانقضاض عليه لضربه، فيمنعها المتجمهرون حول الحدث، ثم يبتعدون عنها قليلًا تاركين المجال لسيل سباب آخر يتابعونه لإثراء معاجمهم.. الرجل هو زوجها كما فهمت، و قد

تزوج عليها في شقة اختار لها أن تكون في العمارة رقم ٥، و قررت هي أن تفاجئه و زوجته التي لم تكن تظهر في اللوحة المبدعة، فكان ما أراه الآن...

- **إنتوا مش الحكومة... إزاي تسيبوا الأشكال الوســ** دي تسكن عندكم، و إزاي تخلوا الراجل الخرفان دا يتجوز واحدة أد أولاده... دا انتو جهاز ابن ****

بدأت اللقاء بسبة غطت على لا منطقية استفسارها.. أي رد منطقي على هذا الديناصور سيجلب على رأسي ما لن أطيق بالتأكيد.. التفتُ بحدة إلى رأفت - فني الصرف الصحي - وصرختُ فيه صارفًا انتباهه عن مؤخرة المرأة:

- **إزاي تسمحوا بالمسخرة دي يا رأفت..؟ أسيب لكم النوباطشية ساعة علشان أقفل شقة دعارة، أرجع ألاقي الراجل إتجوز.. أنا لازم أفشخكم على الإهمال دا..؟**

نظرة رأفت كانت أسطورية و هو يستمع إلى هذا الهراء.. لكني عاجلته بعبارة أخرى جادة و صارمة، مع نظرة للمرأة التي هدأت قليلًا بسبب تفاعلي المهرطق مع هرطقتها..

- **أنا هارجع المكتب أعمل فيكم تقرير يرفدكم كلكم.. و هأبعت قوة تنظف الزبالة دي.. الراجل دا لازم يبات في الحجز..**

الموقف انتهي اكلينيكيًا و بقى رفعُ أنقاضه بأن انطلقت إلى السيارة وهربنا كالمجانين من المكان..

ثم انفجرنا كلنا في الضحك..

***

مرة أخرى.. ما الذي سأنتهي إليه مع نهاية تلك الصفحات..؟

حاولت استنباط الأمر لساعات، و اقتربت من الاستنتاج الذي أصل إليه في كل ليلة، و هو أنني أكتب عن حياتي لا لشيء إلا لمحاولة تتبع أثرها العميق في طيات أحداثها.. أثرها على تصرفاتي وأفكاري وأحلامي، لأكتشف في كل مرة أنها تسكن كل شيء، السطور و ما بين السطور وما بعد السطور.. أحاول الاستنباط جاهدًا كل ليلة حتي تغطي حكايات العفاريت التي يتسلى بها الفنيون في سهراتهم على صوت أفكاري..

رأفت يصر أنه في فترة عمله كسائق، صدم على طريق ليبيا كيانًا لم يره، و إن شعر به على "كبّوت" سيارته، ثم سمع صراخًا للمخلوق الذي لم يجده عندما بحث في الأنحاء.. لكنه شعر بلعنة ما حلت عليه عندما تكررت رؤيته لزوجته على شكل "سحلية" لمدة شهرين، ثم حلت بعدها لعنة أخرى جعلتها تستدعي أهلها مرتين أسبوعيا لضربه..

هل ما ملكته في نفسي لعنة..؟!

غطى صُراخ جمال على تفرُّعِ أفكاري عندما صرخ وسط ضحكاته أن معاناة رأفت لم تكن لأن صدم "ماردًا" كما يدعي، و إنما لأنه بخيل "نتن" في الإنفاق على أهل بيته.. أما زوجته فهي تشبه السحلية فعلًا، و لا يحتاج الأمر للعنة مارد كي يُصَكَّ وجهها بحراشف لامعة.. تبع الحوار ضحكات هستيرية شاركتهم فيها، و تزامنت مع محاولة رأفت رش كوب الماء على جمال فأخطأه و أصابني أنا..

شفت إنك شيشني (ضعيف البصر)..؟ لازم تتجوز سحلية لو شفتها قبل الجواز مكنتش هاتتنيل..!

جمال كان لديه لعنة مختلفة ليست بسبب العفاريت، بل بسبب عدم تلبيته لطلب سيدنا الخضر عليه السلام الذي تمثل له يومًا في شكل شحاذ أعمى طلب منه طعامًا فأعرض جمال عنه.. اللعنة حلت على ابنته الوحيدة فركِبها عفريت يُريها أسرابًا من الذباب يوميًا كلما استخدمت دورة المياه.

كنتُ من انفجر بالضحك هذه المرة، فلم أتخيل العفريت التافه الذي يترك التزاماته في عالمه العفاريتي ليُرِيَ ابنة جمال أسراب ذباب يوميًا بشكل دؤوب منتظم..

***

أعرف عفريتًا دؤوبا آخر طلسم لعنة عليّ شخصيًا.. لكنه لم يستحضر لي ذبابًا ، بل صورتها وأحاديثي معها. يفعل ذلك كل ليلة لثمانية عشر عامًا. يفعل ذلك منذ انتهى كل شيء وحتى الآن وأنا أجلس في شرفتي أتذكر حوارات العفاريت والذباب والمرأة الديناصور، حوارات كنت يومًا جزءً منها مع مشرفي عملي الأول منذ أربعة عشر عامًا.. مضت الحكايات، وانتهت علاقتي بجهاز المدينة، وغيره من أماكن العمل الأخرى.. مات جمال، و رأفت، وغالبًا المرأة التي ضبطت زوجها، وزوجها..

وبقيت ذكراها هي تطاردني..!

ما الداعي لاستحضار تعبيرات وجهها، مع ما كانت ترتديه وكلماتها لي وخلفية تفاصيل مشهد ما أحاط بنا في مكان لقائنا ثم ترتيبها زمنيًا، وتكرار ذلك كل يوم..؟

لم أعرف يومًا، لكني مستمر كمن أصيب بتعويذة ألقيت عليّ، ولا أرغب في الخلاص منها، رغم أنني لا أذكر أنني صدمت ماردًا أو رفضت إطعام الخِضر..

السيرة الذاتية لشعبانوف

لمّا لم يستوعب الوسيم ما حدث وقتَ تَلقِي اللدغة المقدسة

الليلة السابقة، العاشرة مساءً

من هذا الشخص..؟

كنت أنتظر ما حدث من أصدقائي الأوباش الحاضرين لزفافي، لكني لم أتوقعها بتلك السرعة و هذه القوة. اللعنة على من سَنَّ لدغة الصداقة التي يتلقاها العريس.. سنة خرقاء ستورثه جهنم بالتأكيد.. تقاليد الأعراس في مصر نمطية بشكل سخيف، أسماء الله الحسني ثم رقصة مزدوجة مع "رباب" عروسي ثم....

ألم لا يوصف لدرجة أنني التفتت لأطرد من فعلها فورًا، لكني فوجئت بهذا الكائن أمامي.. ضخم الجثة يرتدي سروال جينز أسود وحذاء ذو رقبة عالية على قميص أبيض وسترة من الجلد. شعره كثيف مهلهل ولحيته طويلة ككفار قريش وتنبعث منه رائحة مستنقع تعفنت فيه عشرات الجثث، مع نظرة بلهاء تشي بأن جزءً معتبرًا من مخ ها الشخص أتلفته المخدرات..

الأهم أنني لا أعرفه، و الأكثر أهمية أنه أصيب بنفس الحيرة عندما رآني، ما يدل أنه كان ينوي فعلها مع آخر، و فعلها معي بالخطأ.. ابتسامة بلهاء متبادلة، ثم انطلق يرقص بطريقة غير متناسبة مع موسيقى الـ DJ وهو يغني **"رقّص شعبانوف.. رقّص شعبانوف"** متخذاً من خطواته طريقًا إلى باب قاعة الفرح ف اتجاه القاعة الأخرى التي كان يقصدها من الأصل. بالتأكيد يملك هذا الشخص تلفًا في نسبة معتبرة من خلايا مخه..

*** رواية الحسناء التي افترستها نظراته – الواحدة ظهرًا**

ربما كانت المخدرات، الخمور، عيب خلقي.. لكن مظهره و سلوكه الذي لاحظته عبر عامين كاملين بحكم اشتراكنا في صف واحد في الجامعة يؤكد ذلك الاستنتاج. هو لا يرتدي إلا نموذجًا واحدًا من الثياب، سروال من الجينز الأسود ينتهي بحذاء ضخم ذو رقبة عالية، فوقه قميص قصير الكمين يحمل صورة لهؤلاء المجاذيب الذين يمتهنون الغناء، وسترة جلدية سوداء يرتديها صيفًا أو شتاءً. اشترك ذلك المنظر مع لحيته الصفراء الضخمة وشعره المهلل ونظرته نصف الغافية مع كثير من التصرفات غير المتوقعة، كأن يرقص في ساحة الجامعة، أو يطارد قطة ضالة تسللت إلى جراج السيارات، بالإضافة إلى سقوطه غافيًا بدون أي سابق إنذار في أي مكان

وتحت أي ظروف في تدعيم استنتاجي لدى كل من يتعامل معه.. لا تستيقظ نظرات "تامر شعبان" أو "شعبانوف" – كما يدعونه – إلا بمرور حسناء في لحظة صحو نادرة، عندها ينتبه الجسد الضخم حتى يخيل لمن يراقبها أنه ينظر بجميع أعضائه، فاتحًا فمه قليلًا مع مشروع خيط لعاب، ثم يهرش في شعره الكث وأحيانًا يشد لحيته..

انتباه شعبانوف تحول لمقياس لدرجة لفت الانتباه التي تملكها التافهات من فتيات جامعتنا، لدرجة أن إحداهن تفاخرت أنه أتبع كل ما سبق بتصفيق حاد عندما رآها. لا أدري كيف تسمح جامعة عريقة كالجامعة الأمريكية بدخول مثل هذه المخلوقات إلى مجتمعها، يبدوا أن المسألة أصبحت تتعلق فقط بالمال، وقابلية الطلبة أو أهلهم للتحول إلى جهاز صراف آلي ATM..

لا وقت لمثل تلك التفاهات رغم أنني لفتُّ انتباهه بالفعل، ربما بسبب تنورتي القصيرة نوعًا أو قصة شعري المبتكرة، لكن المحاضَرة ستبدأ.. والمُحاضِرة ستبدأ التحدث..

*** حديثُ المُحاضِرةُ المُنهارةُ في محضر أمن الجامعة – الثانية و النصف ظهرًا**

لم أتعرض لمثل هذا الموقف في حياتي المهنية..

عشرون عامًا من التدريس في مصر وأمريكا، ولم أر مثل هذا النموذج قط. الطالب الذي يتحرش علنًا بمحاضِرة في الخامسة والخمسين أمام طلبتها في صفه، لابد أن نصف خلايا مخه تالفة أو غير موجودة أصلًا..

من فضلك أيها الضابط لا تطلب مني أن أهدأ.. ما أستطيع أن أفعله هو أن أروي لك ما حدث، وفقط بأي طريقة وأي أسلوب.. وعليك فقط أن تتفهم، ثم تقوم بالفعل الوحيد المنطقي كي لا أصعّد الأمر للشرطة.

بدأتُ المحاضرة في موعدي تمام الواحدة ظهرًا، وفي الواحدة والنصف انفتح الباب مع هبوب رائحة عطنه، و دخل ذلك الحيوان، كأنه يلج إلى مرحاض عام. اعترضت على تأخره فلم ينتبه لي، فأوقفت المحاضرة لأنه دخل وجلس بأريحية و بدأ في توزيع نظراته على المكان وكأنه يدخله للمرة الأولى رغم أنه طالب هنا. اتجهت إليه، وبدأت في الحديث بشكل حاد طالبة منه أن يغادر المدرج لأكتشف أنه دخل في سنة من النوم. أخطأت فلمسته كي أوقظه، فأمسك بيدي و قبلها قائلًا أنني ازددت جمالًا و يجب أن.... أن..... ثم دخل مرة أخرى في سنة من النوم. طلبت من زميلين أن يوقظاه لأنني توجست من رد فعله الأول، وما إن فتح عينيه في المرة

الثانية حتى نظر إليّ نظرة مرعبة، ثم صرخ بصوت لن أنساه قط وهو يشير إليّ **"هذه امرأة خاطيه، و يجب أن تغتصب...."**

وأتبع جملته بأن نهض وبدأ مطاردتي في المدرج الذي خرجت من بابه ركضًا، وما إن وصل إلى الباب حتى جلس على سلم الدخول وغاب من جديد في النوم، ثم لم تجدوه بعد ذلك..

*** خبرة الصديق الذي يستمتع بتدمير المنطق – الثالثة والنصف عصرًا**

أعرف أنك مثالي النزعة يا وليد، و أنك لا تتقبل ما يفعله شعبانوف في الغرفة، وممتعض أننا مشتركون في ما يحدث في منزل عائلته التي تقضي أكثر شهور السنة مع والده خارج البلاد.. لكن نفورك فاقد للمنطقية كالعادة، فلو نظرت للصورة كاملة ستجد أنها بدأت بأننا أخذنا شعبانوف من أمام باب المدرج بعد أن استغرق في النوم قبل أن يحاول اغتصاب الدكتورة، وأنه قضى نصف الطريق يغني ويتشاجر مع أناس غير موجودين في السيارة، ثم قرر أن ما فعله في المدرج كان لحاجة غريزية لأن يكون مع امرأة فورًا، وعليه اتصل بواحدة ممن يعرفهن ودعانا لنلعب الفيديو في منزله حتي ينتهي، ثم نخرج لاستكمال اليوم في مكان آخر.. المنطق يقول أننا قبِلنا، وأننا الآن في المرحلة الثانية من العرض، وأننا نمارس ألعاب الفيديو حتى

ينتهي، ناهيك أن أسرته أصلًا تتكون من أم شبه معتوهة، وأخت لا تكاد تعرفه.. صورة عبثية لا يمكن أن تتعامل معها إلا بمزيد من العبث وألا تحاول منطقتها، المختل شعر بالحاجة لإفراغ شيء ما لا يختلف عن إفراغ فضلاته، ونحن ننتظره لينتهي كي نمارس يومنا بشكل طبيعي وننال الكثير من المرح..

أصعب ما يمكن إرباكه يا صديقي هو السياق العبثي، فهو لا يُربك إلا بسياق أكثر عبثًا، و لا يوجد أكثر عبثًا مما نحن فيه الآن.. استمتع يا وليد فهذه اللعبة الجديدة رائعة حقًا..

*** اعتراضية الصديق المثالي على ما حدث – الخامسة عصرًا**

لا أتخيل ما حدث يا ياسر..!

السيناريو الأكثر عبثا الذي افترضته ونحن نمارس لعب الفيديو في انتظار شعبانوف حدث.. المجنون لم يحتمل أن تسأله المرأة في ذروة اندماجه عن عدد غرف الشقة، ثم عن نوع سيارته فطوّق فيها ضربًا مبرحًا، وطردها شبه عارية من الشقة بفضيحة، ثم طفق ضربًا في بواب العمارة وزوجته عندما أخفيا الفتاة لترتدي ثيابها، وتابع مطاردتها في الشارع حتى اختفت عن ناظريه.

*** قصة البواب المسكين الذي أُوسِعَ ضربًا – الثالثة وخمس وأربعون دقيقة عصرًا**

والله يا تامر بيه هذا لا يصح ولا يمكن أن أتقبله حتى لو أتيت بي إلى منزلك وقدمت لي ما تقدمه من مال كما تفعل الآن.. كيف يا بك نصحو على صراخ في وقت "تعسيلة" العصر، ثم ماسورة من الشتائم المتبادلة بينك وبين لا مؤاخذة – شرمـ.*** – تطاردها على السلم بثيابها الداخلية.

العمارة كلها استيقظت يا بيه، وأصبح الأمر فضيحة بجلاجل.. ماذا أقول للناس..؟ ابن شعبان بيه جلب امرأة "شِمال" في شقته.. بعدين يا بيه حتى لو تقبلنا ما حدث، وقلنا طيش شباب، ما ذنبي أنا وزوجتي أن ننال كل ذلك الضرب لمجرد أن سمحنا للفتاة أن ترتدي ثيابها عندنا في الغرفة..؟ لم يكن من الرجولة أن تقتحم الغرفة على زوجتي و توسعها والفتاة وأنا بعد ذلك ضربًا، انظر إلى حجمك وأحجامنا و ستفهم أن ما فعلته خال من أي مروءة..

تامر بك.. أنت نمت..؟

*** تقرير ضابط الحراسات الخاصة – التاسعة مساءً**

الموقع: كمين حراسة وزير القوى العاملة – مصر الجديدة

التاريخ: يناير ٢٠١٩ – تمام السابعة و النصف مساءً

تم الاشتباه في سيارة بيجو ٥٠٨ سوداء بها ثلاثة شباب تبين لاحقًا أنهم "ياسر زعلوك"، و "وليد نصار" و "تامر شعبان"، طلبة في الجامعة الأمريكية.

مسار السيارة التي يقودها "تامر شعبان" كانت تدل على حالة سكر أو تعاطي مخدرات، و عندما طلب الملازم "جرجس" من السيارة التوقف تجاوزت الحاجز الأول وانحرفت إلى اليمين مصطدمة بأقماع السلامة. تمت محاصرة السيارة وإنزال راكبيها واستدعائي كقائد لنقطة الحراسة.

بالكشف المبدئي تبين أن المدعوان "ياسر" و "وليد" في حالة وعي كامل، أما عند محاولة استجواب الثالث "تامر شعبان" والذي كان في حالة غياب جزئي عن الوعي، أصيب بحالة هياج وتطاول على أفراد الكمين، بالسباب أولًا مدعيا أنه قريب لوزير الداخلية، ثم لكم الملازم جرجس، وحاول التعدي على أفراد نقطة الحراسة. بصفتي قائد لنقطة الحراسة – ومع اعتبار احتمال صحة قرابته لسيادة وزير الداخلية- قمت بالسيطرة على المدعو "تامر شعبان" واقتياده بالقوة لغرفة قيادة نقطة الحراسة وحدي

تمامًا. قاوم المشتبه بعنف قائلًا "ولاد الوسـ... يعتقدون أن زجاجة سبيرتوس Spirytus ستهزم شعبانوف، عالم لا تجيد فن السكر، اتركني يا .....".

كان يتحدث في موضوع آخر و بعبارات متقطعة غير مفهومة، لكني فهمت لاحقًا أنه انضم مع صديقيه اللذان – لا يشربان سوى الحشيش كما أفادا – إلى جلسة سكر انتهت بتحدٍ لقدراته، شرب على إثره ثلاثة أرباع زجاجة من نوع Spirytus البولندي الذي يحتوي على ٩٦٪ كحول. قمت بمحاولة أخيرة للسيطرة على هياجه العشوائي في غرفة القيادة ثم اضطررت تحت وقع لكماته ومحاولته الاعتداء عليّ إلى أن.....

*** ما تحمّله صاحب كشك السجائر – الثانية عشر مساءً**

هذا الفتي تم ضربه حتى حدود الموت.. لم يحتجزه الضابط لأن التأكد من هوية عمه لا يحتاج إلا لقراءة بطاقته – إن كان يحملها، لكنه أصبح أول من يوسع شعبانوف ضربًا من لحظة ميلاده..

الفتى ثقيل كالخرتيت حتى أنني و صديقيه عانينا كي نوصله إلى فراشه. الغريب أنه رغم فقدانه لنصف أسنانه، و تحطم أنفه، ومزيج الألوان القاتمة على وجهه، وساقه المكسورة، وكتفه المخلوع كان يغني بكل سعادة..

"شعبانوف" – كما يدعونه – مثير للشفقة حقًا، لازلت أذكره طفلًا أشقرًا جميلًا يبتاع مني الحلوى كل أسبوع و أمنحه عليها قطعة زائدة انبهارًا مني ببراءته التي لا أعتقد أنني رأيت مثلها في طفل آخر. اللعنة على الأموال، والعائلات المنحلة والأمهات المختلات الذين يحوّلون كيانًا جميلًا إلى ما أراه الآن ولا أملك له وصفًا.

أمه عائدة في الصباح وما يجب أن أخبرها إياه كما طلب مني صديقاه أن جماعة من المسلحين حاولوا سرقته، فلما فشلوا أوسعوه ضربًا، بالتأكيد لن يجرؤ أحد على إخبارها برواية فتاة الليل التي جلبها بالأمس نهارًا، ليأسهم من رد فعل منطقي من الأم، وخوفهم من عاقبة عملية رأوها عندما عدم ابنها البواب وزوجته و الفتاة العافية.. لا أدري لماذا فعل ذلك..؟ فلم يخبرني صديقاه بأي شيء..

*** مصير فتى اللحام – الثالثة عصر اليوم التالي**

لم أشعر بشيء ليلة أمس، كسبت تحدي الـ Spirytus بعد خلاصي من ابنة القحـ.** التي لم تبذل أي مجهود لتتقن عملها معي. أين ياسر ووليد..؟ أبناء الـ.**** تركوني وذهبوا بعد أن ضربني ذلك الضابط. لماذا يؤلمني كل شبر في جسدي الآن..؟ يا نهار أسود..! من هذا الذي أرى

في المرآة..؟ ما كل تلك الألوان في وجهي..؟ آآآآآه... لا أستطيع وضع قدمي على الأرض، أنا بحاجة لطبيب.. أمي.. أمي..

"لماذا تنادي عليّ بهذا الحماس أيها الأبله..؟ ألا يكفي أنك حولت الشقة إلى ما يشبه الزريبة خلال أسبوعي غيابي..؟ سأفرغ لك بعد أن أنتهي من ذلك المأفون الآخر الذي قرر أن يعتلي لافتة المحل أمام شرفتنا للحام قمتها.. طلبت منه مرة ومرتين أن ينزل فلم أنل إلا الرد الأكثر بلاهة بأنه سينتهي أولا مما يفعل من أضواء وأصوات..

لن ينفع مع مثل هذا الرجل المزعج إلا الحل الجذري، تمامًا كام كنت أفعل مع ذلك العجل الأصفر الشبيه ببقرة بني إسرائيل الذي أنجبته عندما كان طفلًا.. سطل من الماء يصطدم بالرجل الذي يعتلي اللافتة، أضواء مبهجة تتناثر من الماكينة التي يحمل وكانت تصدر ضوءً أبيض منذ قليل ثم يسقط إلى الشارع...".

*** ما قاله شعبانوف – الثالثة و النصف من عصر اليوم التالي**

يا للنهار الأسود.. ألقيتِ ماءًا على رجل يعمل باللّحام يا أمي..؟

المنظر الآن عبارة عن أمي تضحك مرحًا، والرجل ساقط في عرض الطريق بعد تلقيه صاعقة كهربائية، وأنا أزحف محاولاً فعل أي شيء لا أعرف كنهه، قبل أن يخفت ضوء الجزء السليم في عقلي.

*** شعبانوف في فقرة كوميدية بين ياسر و زميل عمل – بعد عشرين عامًا**

عرفتُ شعبانوف كما كانوا يدعونه خلال دراستنا في الجامعة..

حضرت معه كل المواقف التي رويتها لك: العريس الذي لدغه بالخطأ، يوم فصله من الجامعة، سَجنُ أمه لعام بعد أن كادت تقتل فتى اللّحام.. و غيرها. النهاية المنطقية التي لم أحضرها كانت على طريق العودة من الساحل منذ عشر سنوات.. الكثير من عقار LSD جعل شعبانوف مستيقظًا لأربعة أيام، بذل فيهم مجهودًا في المرح لا يتحمله قلب إنسان طبيعي، لا قلب تراكمت عليه الدهون والكوليسترول والخمور والمخدرات وأربع علب سجائر يوميًا لسنوات. قرر – كما حكى لي صديق مشترك – أن يعود من الساحل لمواصلة المرح لباقي الليلة في القاهرة وهو لا يشعر بأي

تعب.. ثم وجدوه في اليوم التالي على طريق وادي النطرون و قد تمرد قلبه وقرر التوقف..

تخيل.. عاش ثم مات بلا تصاعد لأحداث درامية، أو تفسير لما كان عليه.. فقط سلسلة من المواقف التي نتذكرها الآن من باب إضفاء الكوميديا على حواراتنا المتكررة عن إنسان تحول عمره بالكامل لمادة تسرية وقت بين زملاء عمل..

سيبك أنت.. هانتغدى إيه النهاردة..؟

سرد تنازلي في يوم بارد

(٥) الصباح الباكر، مع شرخ عميق..

الشرخ العميق في أرضية الساحة الرئيسية لقسم الشرطة، والممتد حتى الحائط الواقع خلف مجموعة من أمناء الشرطة المختصين بكتابة المحاضر هو المنظر الذي استطاع "سعيد البربري" إلهاء نفسه به عن سيل الإهانات غير المبررة التي تفنن الأمناء في كيلها له رغم أنه لم يكن متهمًا كذلك القابعِ في الزنزانة المؤقتة قبالة مكتب الاستقبال.

"سعيد" كان يبلّغ عن اختفاء ابنته المتغيبة من مساء الليلة السابقة.. فشل هو و أعمامها و أخوالها و أخوتها في العثور عليها أو على أي دليل يشير إلى أين ذهبت فجاءوا للقسم كحل أخير..

طَلَبُ الرجل فَتْحَ محضرٍ للإبلاغ عن اختفائها تحوّل لمفتاح عبارات من نوعية **"ما تلموا لحمكم بقة الله يقرفكم"** و **"تلاقيه هو اللي مسرحها وجاي يرمي بلاه على الحكومة"**، ثم دفعة موجعة كادت أن توقعه أرضًا من أمين آخر أثناء خروجه من وراء المكتب المتشقق. المهانة الأكبر كانت في رد فعل الضابط الذي خرج من غرفته في ركن القاعة على صوت سباب الأمناء لسعيد..

الضابط سأل أمناءه بصوت بدا أنه يتعمد أن يكون مرتفعًا لمستوى يسمعه كل من في القاعة و ربما من خارجها "ماله ابن الشر..#### دا عايز إيه..؟"، و اتبع العبارة بركلة أخرجت شرخ الحائط من مجال رؤية "سعيد" بسقوطه على ظهره مهمهمًا عن ابنته التي اختفت من مساء الأمس، فما كان من "الرائد بيتر" إلا أن أخذ بياقة جلبابه ساحبًا إياه إلى باب القاعة مع سيل شتائم و إهانات متصلة، ثم قبل أن يركله خارجا:

"المحضر بعد ٤٨ ساعة يا "ابن الوسـ..." على الصبح، دور عليها في أي مزبلة قبل ما تيجي تعمل محضر"..

حتى المسجلين "خطر" المصفّدين، ومدمن المخدرات الملقى في الزنزانة المؤقتة لم يفهموا ما الذي يمكن أن يذنبه رجل يبلّغ عن ابنته المختفية.. أما "جرجس" الذي كان مغرقًا في كتابة محضر تأمين حادث سيارة فلم يفهم مغزي النظرات التي تبادلها الرائد بيتر مع مجموعة الأمناء الذي كالو لسعيد سيل الإهانات السابقة، و لا أوامر بيتر التالية لأمنائه

"خرجوا "بنت القحـ.." دي من هنا، يلعن ميتـ.. أبوها بوظت القضية"..

وحدها "رباب" - بسنواتها التي لم تتعد الثامنة عشر، والتي شاهدت ما حدث عبر محيط عينيها السوداوين من خلف حائط زجاجي معتم مع سيل دموع لا ينقطع.. فَهِمَتْ.

(٤) ساعات قبل بزوغ الشمس

فَهْمُ رباب جاء بعد بضع ساعات من أصوات الصراخ المدوي من الغرفة المجاورة لحجز النساء..

صياغة الأفكار لا تعتّد بالطبقات، فهي تنساب بشكل لا يجمعه إلا ما سيصيغه راوٍ في صفحاته عمّا دار في ذهن "نعمة فرهود" أو **"نعيمة منجهة"** كما يتداوله مُرتادي ساحات البغاء عندما يبحثون عن قوادة محترفة:

"خُطتي المضادة لخطة ذلك الضابط البدين قد أفلحت تمامًا..

عَرفتُ أنه "لا قضية" عندما أعادوا لنا ملابسنا في الحجز، كذلك سيُفرج عن الرجال الذين ضُبطوا معنا، كما أخبرني أمينٌ آخر مقابِلَ لمسةٍ عميقة.. لا ضير إذن من بضع صفعات أتجاوب معها بصرخات محمومة ترج أركان القسم، فتثير حماس الأمين الموكل بتأديبي ليبدع في عمله معي بعد صفعاته بسلسلة من الركلات – تقولها "شلاليت" في العادة لكن الكاتب هو من يصيغ هنا.

أهلًا بسيل الشتائم الذي أتلقاه من الجميع ما دمت متأكدة من أنهم سيلقون بي خارج القسم أنا و بناتي الأربع، الذين حرصت أن يكون بينهن من لم تبلغ الثمانية عشر عامًا للمقامرة على هدم القضية كما حدث. اقناع مثل رباب بالانضمام لفريق السعادة كان أصعب ما في الأمر، لكن قدرتي على الزن، والهرمونات المتدفقة، مع العجز عن الاستمتاع بالمباهج المحيطة بمثلها لقلة

المال، و وعدي لها بألا تخرج من إطار "الريكلام" اللاتي يظللن مع عميلٍ يتم تخديره بالخمر أو المنوم قبل المرحلة الأخيرة، فتنال المال ولا تفقد ما قد يقلل فرصها في زواج محترم لاحقًا، كل ذلك يليّن الراهبات لا "رباب"..

لا ينوي "زبانية القسم" إلا تأديبي لا إصابتي بعاهة، فهم لم يعهدوا بمهمة ضربي إلا لأمين واحد فقط، و لا ينوون كذلك ممارسة الجنس معي لأنهم عهدوا بالمهمة لرجل "عاجز جنسيًا"..!

كيف عرفت..؟!

كأنك تسأل طبيبًا عن موضع رأس مريض..! سؤال سخيف له وقع إهانة أقسى من ضربات الأمين المستمرة والتي انتقل بي بها إلى خارج الغرفة ليشاركه الحفل أغلب الحضور بألسنتهم..

لا تُسأل صانعة سعادة مثلي مثل تلك الأسئلة، فالقوادات والراقصات "العوالِم" والغجر ممن يرقصن شبه عاريات أمام كل أطياف المجتمع هن أطولُ الناس عمرًا و أقدر البشر على التكيف مع أي ظروف، و أفضل فرّازين للبشر.. هكذا "هرشتُ" الرائد بيتر وأفسدت خطته.. معي لا يتطلب الأمر أكثر من نظرة متفحصة لأعرف ما إن كان أحدهم فحلًا أم مثل صاحبنا.. لأعرف ما يريد وما ينوي وما حدوده وما احتياجاته وما سيسعده وما يعتقد خطأً أنه سيسعده، و بالتالي من هي – أو هو – الشريك المطلوب..

الأمر علمٌ له أصولٌ و مبادئ سأضعها في كتاب بعد تقاعدي.. انتهي الأمر الآن و سنبدأ في إجراءات الإفراج بعد قليل..

– سي الباشا بيتر صعبان عليا.. شهور تحريات، و تلّبس و بعد كدا فركش.. علشان قلبه رهيف"

(٣) قرابة فجر اليوم

"مش مسألة قلبي رهيف زي ما "القحــ" قالت لك.. أنا مش عايز أجيب لنفسي مصيبة يا روح أمك.."

خرج الرائد "بيتر" عن شعوره للمرة الخامسة تقريبًا أثناء أخذ أقوال "منصور" آخر من يحقق معهم من الأربعة رجال الذين ضُبطوا في الشقة. قَرُبَ الفجر على البزوغ، و عليه أغلاق المحضر. الرجال في نظر القانون في هذه الحالة شهود لا يمكن احتجازهم، القضية قضية دعارة بحتة استهدف بيتر بها نعيمة و شبكتها، لكنه الآن مضطر لهدمها من أساسها قبل الصباح بدون حتى العرض على النيابة، أقصى ما يستطيع فعله هو علقة ساخنة لنعيمة بعد قليل و بعد حرمانها من النوم لليلة كاملة، ثم إهانة مذلة لأبو القاصر التي كانت مع نعيمة – رباب كما يتذكر – كي تعرف مغبة ما جلبته على أهلها فلا تعود لهذا الكار مرة أخرى مها كانت حاجتها للمال مذلة.

- أكتب عندك يا إبراهيم.. **سؤال**: بم تفسر وجودك في محل ممارسة بغاء..؟
- مش ها تسألني عن اسمي و سني و عنواني زي الأفلام..!
- لأ يا خفيف، و جاوب بدل ما أخليهم يعملوا معاك أنت فيلم بورنو..

أجاب المتهم:

"الموضوع بسيط، بدأ الأمر بمطاردة عبر رسائل نصية من رقم مجهول لمن سمت نفسها **"نعمة منجهة"** تعدني فيها بليلة لن أنساها بمقابل مناسب، يبدو أنهن الآن يطاردن العملاء كبائعي الوحدات السكنية، و ربما يكون لديهم هدف Target مثلهم. عرفت أنها قوادة عندما طلبتُ منها صورة كي أعاين البضاعة، فأرسلت لي عشر صور لفتيات مختلفات متباينات العمر. أنا لست ملاكًا يا باشا، كل رجل في عمقه جزء عربيد يهفو للمتعة غير المرتبطة بالتزامات مهما كان التزامه.. والزن على الآذان أمرٌّ من السحر، و "البعيدة" كانت ساحرة في عروضها.. ببساطة، مجموعة من الأصدقاء الفسقة، ليلة رأس السنة و**"نعيمة منجهة"** ثم انتهى الأمر بي هنا ملفوفًا في ملائة"

سؤال:- كيف تصل نعيمة لزبائنها، و كيف وصلت إليك..؟

أجاب المتهم:- "تستطيع أن تسأل نعيمة.."

كاد بيتر أن يفقد أعصابه من جديد، لكنه تماسك و أشار للأمين إبراهيم أن يُخرِجَ منصور من أمامه، ثم سرح في السقف فسأله صول آخر ضخم..

- هانعمل إيه في المحضر يا باشا..؟

نظر إليه بيتر للحظات ثم رد..

- رجع لهم هدومهم في حجز النسوان يا جرجس، وأمسك "بنت القحـ" دي أعجنها ضرب.. و لما يجي أبوا البت القاصر يبلغ عنها مرمطوا بكرامته الأرض و خليها تتفرج..
- والمحضر يا باشا..؟

تناول بيتر أوراق المحضر التي سجل فيها أقوال الفتيات، ومنصور وزملائه الأربعة فمزقه وألقى به في سلة المهملات ثم ألقى سيجارته عليه ليحرقه.. أشار لجرجس أن يغادر وأغلق عليه باب غرفته، بعد أن أمره: **"جرجس..! من غير عاهات.. و بعد ما أبو البت رباب يمشي، خرجهم كلهم.."**

(٢) على طاولة عشاء جابر في الواحدة صباحًا

"آه والله هانخرجهم كلهم..!"

معلهش.. قصدي آسف، نسيت أني مضطرٌ أكتب بلغة التقارير..... قطّع الورقة يا واد يا جابر و من الأول..

تقرير مرفوع من الأمين: جابر سلمان البوادي.

عناية العقيد: (س. م.) – قطاع الأمن الوطني

بتاريخ ٠١ يناير ٢٠٢٠: مباشرة بعض القبض على شبكة **"منجهة"**

الساعة: الواحدة صباحًا. قبل بداية التحقيق.

مش هيكون التقرير طويلًا، لأن القضية انتهت قبل أن تبدأ. بعد شهور من المراقبة و التحريات و تتبع خيوط الاتصالات بين نعيمة و زبائنها، تم رصد موعد بين أربعة رجال و أربع فتيات بحضور نعيمة في شقة تقع في **(العنوان)**، ليلة رأس السنة. توجهنا للمكان بقوة صغيرة مع **"الرائد بيتر"** نائب مأمور القسم. تم القبض على الرجال والبنات ونعيمة، وتحريز الملابس. بفحص البطاقات الشخصية – للي معاهم بطائق – تبين أن المدعوة "رباب سعيد البربري"، قاصر و عليه يجب قانونًا تسليمها من القسم لولي أمرها – اللي هايقتلها على باب القسم و يجيب لنا مصيبة – و عليه في انتظار قرار الرائد بيتر، و سنوافيكم بالجديد.

و تفضلوا بقبول فائق الاحترام.

(١) سعيد البربري

في تمام الحادية عشر مساءً قرر "سعيد البربري" أن يبدأ البحث المحموم عن ابنته رباب.

سعيد نموذج مثالي للأب القادم من الطبقة ما تحت المتوسطة بقليل.. رجل عصامي لم يتلق تعليمًا كاملًا، و بدأ تجارة بالتوازي مع زواج أنجب منه تسعة أبناء و بنات تداخل في كل تفاصيل حياتهم محاولًا جعل نفسه مثلًا أعلى لهم، و أن يوفر لهم ما حُرم هو منه من تعليم مستعينًا بتجارته التي تدر دخلًا معقولًا و إلّم يكن ثابتًا. العالم العميق لحياة أولاده و بناته لم يكن من اهتمامات سعيد، لا لعيب فيه بل لأنه يثق بهم ويثق أن متطلبات ومباهج الحياة التي يتعرضون لها لن تؤثر على شبعهم الذي حرص على زرعه فيهم منذ الصغر، وربما لأن عمق تفكيره لم يواز يومًا عمق ما يمكن أن يحدث.

يؤمن سعيد بقدر خبرته أنه لا يجب ولا يمكن أن يُعاقب الابن أو الابنة أو حتى من يقعون تحت تصرفه ممن يعملون معه في شركته الصغيرة للحلويات على خطأ المرة الأولى، لذلك كان يتغاضى عن سقطات مبررة لأبنائه وإن بدت كبيرة، لكنه كان حريصًا ألا يمر الأمر بدون درسٍ يمنع الواقع في الخطأ من تكراره..

السابعة صباحًا ولم يعثر على رباب.. ليست لدى صديقاتها، ولم يرها أحد من أقربائه، وليست في المستشفيات المحيطة بالحي، لذلك كان هذا هو الوقت المناسب للجوء إلى القسم.

نهاية السرد التنازلي..

"و خرّجناهم من القسم وباظت أم القضية اللي بأطبخ فيها من ست شهور"

خرجت الجملة من صدر بيتر مع نفس شيشة عميق أثناء جلوسه على المقهى مع أصدقائه في اليوم التالي لحادثة رباب. نال إجازة تعوضًا عن العمل لثلاثة أيام متصلة في خطة تأمين فترة أعياد رأس السنة و تمهيدًا لعيد القيامة الذي اقترب.

لم تُعبّر العبارة عما دار في ذهنه وهو يشاهد "نعيمة" وفتياتها يخرجن بزفة ملوكي من القسم بعد أن تم حرق كل ما يتعلق بالقضية. وحدها رباب أخرجها من الباب الخلفي دون أي زفة مكتفيًا بما رأته من إهانة عنيفة وغير مبررة لأبيها..

"لا يُعاقب المرء لخطأ يرتكبه للمرة الأولى"

ربما كان هذا هو الدافع، ربما كان الخوف من أن يقتلها أبوها فيجلب لهم مصيبة.. المشهد الختامي في القسم صباح اليوم اكتمل ببيتر يميل على الأمين جابر قائلًا:

- أنت بعت التقرير السري اللي بتبعته كل أسبوع..؟! هم ميعروفوش لسة إننا قبضنا على "بنت الوسـ..." دي، و لا عرفوا..؟

أجفل جابر للحظات ثم تقبل الموقف العبثي، و تمالك جأشه:

- لا يا باشا لسة..

نظر إليه بيتر مرة أخرى، ثم قال:

- طب متبعتوش.. استنى لما يبقى فيه حاجة تستاهل.. أنا طالع الإجازة، سلام.

حفّارٌ.. و رمال.. و أشياء أخرى

(١)

- لا نملك ترف إيقاف الحفّار تمامًا لليلة كامل، فذلك يعني ملايين الجنيهات مقابل مخاطرة نستطيع التغلب عليها بوردية إضافية.. أنا لا آخذ رأيك يا "باشمهندس"، أنا أعطيك تعليمات.. لا إيقاف للحفّار اليوم، و عندما لا تعمل المكابح استخدم الزر الأحمر تباعًا و تكرارًا للسيطرة على الموقف..

هكذا كان رد مدير الموقع عندما ارتبكت مكابح الحفّار و لم تعد تعمل بشكل منتظم. لا نوم طوال فترة الحفر لليلتنا إذن، حيث أن الخطأ الواحد سيؤدي أن يسقط الحفار ذو الثمانية عشر طنًا بشكل حر ليسحق عشرين عاملًا يؤدون مهام المناولة و التطهير أسفل الحفار..

مسؤوليتي أن أوازن بين استمرار العمل وسلامة من يعملون حتى لو كانت تلك الموازنة شبه مستحيلة. أعلم بحكم التخصص أن إيقاف الحفار يوازي بالضبط العمل بالطريقة التي يقترحها ذلك المعتوه الذي لا يهتم إلا بالمال والمنظرة الفارغة، لأن معدل العمل سيكون مريعًا.. بالإضافة أن أعطالًا من نوعية أخرى يمكن أن تحدث و تهدد أساس فعالية الماكينة الرئيسية.. أي أن ما سنقضي الليلة فيه هو ببساطة مخاطرة، بلا فائدة..

(٢)

مهما طالت الليالي هنا فنهايتها واحدة.. ليلة عمل حفّار معطوب تنتهي – كغيرها – بي وحدي في غرفتي أحادث مكوناتها بحديث لا يتغير.. ليالي الصحراء تشبه تمامًا ليالي الأوبئة التي يلزم فيها الخلق بيوتهم، ولا يُسمح لهم بالاختلاط لتجنب نقل العدوى. الوباء هنا ليس كائنًا مجهريًا ينتشر كالمجنون عبر قائمة ضحايا يحصدها ثم يعود من حيث أتى.. وباء الصحراء – الذي لا يفنى – ينتقل بالنظر إلى حبات رمالها الممتدة عبر الأفق ساحرة كل من يجاورها من أمثالنا.

لا علاج إلا أن نقاوم، ووسيلة المقاومة الوحيدة هي التآلف مع أثر الصحراء على أنفسنا.. نطبع تفاصيل حياتنا عليها، وتركها تتغلغل خلال أعماقنا. يستحوذ علينا وباء الصحراء، فنفقد التمييز بين لياليا، و لا يعيدنا إلى الزمن إلا العمل، ثم الرزنامة التي تشير إلى شهر كامل قضيته في أحضان وباء اخترته وعشقته حتى تمنيت أن يشعر العالم بما أشعر وأنا في أغواره.

(٣)

الحائط الأيسر لكابينة سكني تحتل نصفه مكتبة صغيرة تزدحم بالكتب، خلّقت مع خلفية رمال تظهر من نافذة تحتل النصف الآخر إطارًا ستتسلل خلاله الشمس بعد ساعات. لوحة كاملة تستحضر ما يزاحم الوباء الأول في معركة على امتلاك روحي.. فرّغت حيزًا في صف المكتبة الثاني لمجسم عودٍ صغير أهدتني إياه في أحد لقاءاتنا.. عودٌ مجرد رؤيته تنسج نسقًا لحركة الهواء المثيرة للرمال، فتحادثني بلحن سمعتها تعزفه في أول لقاءاتنا..

"يا سائرين على درب الحياة كما..... "

لا أذكر باقي الأغنية التي شدت بها يومها، لأن الصحراء تغار فلا تسمح بذكريات كاملة.. فقط ومضات تأسر بها وعيي، و تجعلني أتحرك أمام النافذة كما يتحرك المنتش بلحن سماوي يأرجحه يمينًا و يسارًا..

الغيرة هي أمُّ المشاعر التي تدمنها الصحراء.. و قد أكلتها لفحة عنيفة من الغيرة عندما تسللت ذكرى فتاتي إلى نفسي لأبدأ سقوطًا حرًا غير قابل للسيطرة كسقوط الحفار. التنافس بينهما كان على أشده.. في كل ليلة تنطبع صورة العازفة على هيمنة الصحراء فتزمجر و تصرفني إلى سبيل سيطرة آخر من سبلها التي لا تنتهي.. سبيل تقتحمه الأولى دون طرق، فينفجر غضب

الصحراء عن أشعة الشمس في بدايات لهيب الضحى. و مع استمرار الغناء – و إلّم أتذكر الكلمات – وبداية تدفق الذكريات لا تجد الصحراء بدًا من دفع المعركة إلى مسار آخر..

(٤)

رمال صحرائي المجنونة غارت، فأوحت للحائط الآخر أن يذكّرني بما أرسمه عليه منذ أسبوعين وأمنحه ساعتين من وقتي كل يوم.. لم أكن رائقًا اليوم، خاصة أنني وصلت وردية العصر بوردية المساء، مما يعني أنني أعمل منذ ست عشر ساعة.. إلا أن حنينًا مفاجئًا جرفني لجناحين في مرحلة رسم حدود الريش باللون الأسود تمهيدًا لصبغهم بألوان نويت أن تكون مبهجة.. الجناحان يحتلان الحائط بالكامل، ويديّ الآن تمتلك إرادة خاصة تحت رحمة وباء الصحراء تجعلهما تتسللان إلى الفرشاة والألوان، ثم تحركني مسحورًا إلى قرب الحائط لأبدأ، فأندمج في الرسم حتى أن الجناحان ينتقلان إلى ظهري.. تلك هي مرحلة السيطرة الكاملة التي لا ينقذني منها إلا همسات في أذني بصوت أميزه.. صوت يخبرني بوقع الأغنية ذاته أن الجناحان ليسا إلا وسيلة فقط لأصبح ما تريديني أن أكونه..

نحن ما يريده من نُحب و إلّم نعلم كنهه في البداية، و أنا لم أحب إلاها.. و لا أدري ما إن كان جناحيّ اللذان كانت تريدهما لملاك أم شيطان.. ما أنا متأكد منه أن الصحراء خسرت المعركة في كرّتها ثانية، فلم تجد بُدًا من إن تسقِطَني في بئر النوم، غير عالمة أن مملكة الأحلام لها عرش ملكته منافستها مذ رحلت.

(٥)

- ما كان للأمر أن يتم إلا بوجود مهندس كفئ مثلك في الوردية.. لك شهر هنا، ولا داعي لمزيد من الاحتجاز يا صديقي، شهر مع الصحراء يكفي. ستأتي السيارة لأخذك للمطار غدًا صباحًا، لقضاء شهر كامل مع أسرتك..

أيقظتني المكالمة من الرجل الذي غضب منذ قليل لأني اقترحت إيقاف العمل لليلة واحدة، لأجده يقرر الخلاص مني لشهر كامل.. هل سأمت الصحراء من هزيمة وبائها في نفسي، فقررت منحي إجازة عن طريق مدير الموقع..؟ قد يكون التفسير أنه مصاب بسيطرة كاملة لوباء رمالها، الذي قد يكون منتشرًا بنفس القدر بين المائة والسبعين عامل وفني الذين يقيمون معي وسط الصحراء..

هل أنا وحدي من يقاوم..؟

دخلتُ في النوم مجددًا، لأسمع صوت أمي يناديني متسائلًا عمّا بي..؟ السؤال الأبدي الذي ظللت أسْأَلُهُ منها ومن أبي لثمانية عشر عامًا، دون أن أجد لإجابته صياغة تشفيهم.. النداء مرة أخرى لكنه يفشل في مقاطعة حديثي مع من تسيطر على عالم أحلامي. ما بي كان ذنبٌ في نظر كل من حولي، رغم أنه كان واضحًا، وقويًا لدرجة أنه لم ينهزم بالزمن ولا بوباء صحراء تسيطر على روح كل من يجاورها، ولم يضعف، و لم تخف قبضته على روحي إلا بقبضة أخرى تزاحمه عليها، فتمنعها من استعبادي للأبد، في حلم كالذي أحاول الخروج منه الآن لإعداد حقيبتي و العودة لمنزلي، بعد شهر كامل في الصحراء.

(٦)

سائق الشركة يتحدث بلا انقطاع أثناء الطريق من المطار إلى منزلي بالقاهرة.. أهز رأسي متجاوبًا مع تعبيراته التي تبدوا مرعوبة و محذرة من خطر ما، لكن انشغالي بإعداد تقريري جعل عباراته تتوه وسط تحاليل المخاطر، وصور الحفّار المعطوب، وتقرير قطع الغيار المطلوبة. دخلنا إلى شارع رئيسي مع ضغطي لزر إرسال ملف التقرير تمهيدًا لغلق جهاز حاسبي

الشخصي طوال إجازتي، لا لشيء إلا لتجنب وجهها الذي يطاردني وسط السطور و بين الكلمات، مذكرًا إياي بنظرة انتصار أن قبضة الصحراء قد خفت وأنني لها الآن وحدها.

لماذا تبدوا شوارع القاهرة خالية بهذا الشكل..؟ الوقت هو ظهر يوم ثلاثاء في منطقة مزدحمة تقع في قلب حي مدينة نصر حيث المكتب الرئيسي لفرع شركتنا في مصر و كذلك منزلي..!

لم انتبه لما قاله السائق..

وباء.. هل هناك وباء آخر غير سحر رمال الصحراء..؟

أعاد الرجل إخباري أن ثمة وباء اجتاح البلاد، و أن الحكومة تفرض حظرًا شاملًا لأهل البلد من الحركة لمسافة تزيد عن الكيلومتر حول منازلهم للسيطرة على انتشاره..! وأن الأمر تطور خلال أسابيع لتتحول القاهرة المكتظة إلى صحراء أخرى تنتظرني لكن بلا رمال. الرجل لم يكن مرعوبًا من الوباء، بل مني أنا، فقد تلقى رسالة من الشركة تفيد أنني أتيت من الخارج و بالتالي مشتبه فيّ كحامل للوباء. و لم يقدني إلى المنزل الذي أعيش فيه وحدي إلا لأجمع بعضًا من ملابسي في حقيبة لقضاء أربعة عشر يومًا في عزل صحي للتأكد من خلوي من المرض. في المقابل، لم أَخَف من الوباء، فأنا موبوء بأكثر من علة تتصارع لنيل روحي، والضامن لعدم حصولهم

عليها هو انشغالهم بصراعهم فلا ينفرد أحدهم بي.. أنا بصدد أربعة عشر يومًا وحدي مع أقواهم بدون الصحراء.. و هو ما لن أخرج منه أبدًا..

لقد انتهي أمري..

سحر مدفون

مازن: "تشير الرسالة رديئة الكتابة أن ثمة سحرًا مدفونًا بغرض أذيتي، و أن ساحره يطلب مبلغًا مبالغًا فيه من المال لإبطاله. تداول الكثيرون – من باب الفكاهة – تلقيهم تلك الرسالة التي أراها الآن على جهاز هاتفي المحمول.. الرد الشهير الذي سأستخدمه بسيط جدًا، و يحمل تصاعدًا سخيفًا في سلم الفكاهة المنحطة لهذا السيناريو.. بنفس اللغة الرديئة كتبت أنني من وضع السحر في مكانه، و أن عليه أن يدعه و شأنه".

***

توقف الموقف عند هذه المرحلة، وبدأ مازن مرحلة الاستعداد الصباحي للنزول إلى عمله. القميص المتكرر لكل يوم، ربطة العنق الرمادية بلون البدلة الداكنة التي ترتبط بمصداقيته كما تعلّم. بداية يوم طبيعية لشخص ناجح، لم يقاطعها إلا رسالةٌ أخرى صرخ بها جهاز هاتفه المحمول. قرر أن يؤجل قراءتها حتى الوصول للعمل، ثم أداء فقرة دورة المياه التي يتابع فيها ما فاته من إشعارات تطبيقات التواصل التي لا تنقطع عن هاتفه.

***

مازن: لا أستطيع أن أجد حذائي..! تعوّدت أن أضع كل شيء في مكان لا يتغير لتجنّب إضاعة الوقت في البحث عما أحتاجه قبيل التوجّه للعمل. اليوم استيقظت في موعدي الطبيعي تمام السادسة صباحًا، لكن بشعور مفاده أن ثمة شيءٍ خطأ.. تركيزي و انضباط عقلي هما رأس مالي الأساسي كمحترف بنوك يعيش وسط عالم من الأرقام، لذلك لدي حساسية تستطيع أن تلتقطَ الخطأ بدقة لا تخيب.. عدم وجود الحذاء في موضعه مجرد تفصيله تدعم إحساسي الذي يتزايد. بحثت في خزانة الثياب وتحت المقعد.. طاولة الطعام التي أستعملها أيضًا كمكتب، و تحتل صدر الاستوديو الذي أعيش فيه وحدي، يمكن أن تداريه تحتها رغم أنني أدرك استحالة ذلك في حالة مهوس نظامٍ مثلي. توجهت لإلقاء نظرة تحتها فوقع نظري على ضربة قاتلة لاحتمال أن يكون اليوم طبيعيًا.. تاريخ اليوم الظاهر أعلى شاشة هاتفي يشير إلى أننا في يوم جمعة.. تاريخٌ اقترن برسالة ثانية تشير إلى السحر نفسه، لكنها على تطبيق WhatsApp هذه المرة، وتحمل إلى جوارها وجهًا ضاحكًا.

***

فتي التوصيل توقف سائلًا البواب عن رقم العمارة أولًا، ثم عن شقة الأستاذ **مازن مجاهد**.. ابتسامة البواب الخبيثة أوحت للفتى أنه أمامَ من يعرفُ مازن جيدًا. أما سؤال البواب بالخبث ذاته عمّا إن كانت الوجبة التي طلبها الرجل من المطعم الشهير لشخص أم اثنين، فأكد بنسبة عظيمة أن الأستاذ مازن معتاد على استضافات غير بريئة في شقته، استضافات تقترن بطلب الطعام. البواب دفع ثمن الوجبات، ومزق الفاتورة، ثم حيّا الرجل مشيرًا إلى أنها تعليمات الأستاذ مازن بأن يتسلم البواب أيّةَ طرود – حتى الطعام – لإيصالها إليه كنوع من الخصوصية. بالنسبة لعامل التوصيل لم يعن كل ما سبق أي شيء.. بالنسبة له، لا يتعدى تعريف من يتعامل معهم من البشرُ أثناء عمله حقيبةً يسلّمُها، و مبلغٌ ماليٌ يتلقاه كثمن لما وَصّلْ، و ربما في بعض الأحيان بقشيش يتفاوت حسب استلطاف الزبون له. تابعه البواب وهو يبتعد، ثم بدأ في ترديد أدعية تطلب الغفران على مساهمته في مثل تلك الرذائل، ثم تطلب البركة لما للبقشيش المحترم المتوقع من موظف البنك المرموق الذي غير أوقات متعته تماشيًا مع وضع البلاد الحالي في الشهرين الأخيرين.

***

مازن: لماذا يدق باب الشقة قرابة الثامنة صباحًا..؟

آخر ما أتذكره، أنني رأيت الرسالة الثانية ، أثناء بحثي عن فردة حذاء ضائعة، بعد أن استيقظت و ارتديت ثيابي، فاكتشفت بالصدفة أن اليوم هو الجمعة.. بنفس الصدفة، اكتشفت الآن أن الساعة ليست الثامنة و إنما الرابعة عصرًا..! و أنني فقدت الزمن بين الاكتشافين الأول و الثاني. أما الاكتشاف الأهم بعد عودتي للوعي على صوت جرس الباب، هو أنني أقف أمام المرآة الكبيرة بملابسي الداخلية و سكين المطبخ في يدي التي تقترب أو توقفت أمام عنقي..! لا أستطيع أن أحدد لأن اللحظة كانت لحظة توقف للمشهد.. و لا أعرف ما إن كانت هذه هي نهاية القصة، أم بدايتها، أم أنني في وسطها..؟

أنا مُدّربٌ على استعادة جأشي بسرعة للتعامل مع عملاء البنك فائقي الأهمية في أي وقت و تحت أي ظروف.. أخرجت نفسي من حالة الحيرة بسرعة، وارتديت الروب، وداريت السكين تحت الوسادة، ثم فتحت الباب لأتناول وجبتي الغذاء من صبحي بواب العمارة. نفحته خمسين جنيهًا، ونظرت إليه نظرة فهمها جيدًا، فرد عليّ بابتسامة خبيثة مفادها أنه فهم أنني أتوقع ضيوفًا كعادتي. أغلقتُ الباب واضعًا الطعام على طاولة جانبية، وألصقت ظهري بالحائط محاولًا تجميع ما يحدث.

فعليًا أنقذني صبحي من محاولة انتحار مجهولة السبب – أو معلومة السبب لكني أغالط نفسي. و عمليًا فقدّتُ سبع ساعات لا أعرف ما حدث فيها. ساعات انتهت بصورتي أمام المرآة أحمل سكينًا يقترب من عنقي. أما مستقبليًا فيبدو أنني دعوت إحداهن لقضاء الأمسية معي كعادتي في أيام إجازة نهاية الأسبوع، و بعض أيام وسط الأسبوع كسرًا للروتين.. لكني لا أذكر من..؟ و لا أذكر كيف..؟ و لا أذكر متى..؟

الأهم، و الذي قد يحمل إجابة ما أن هاتفي يضئ الآن مرة أخرى عن رسالة ثالثة، رسالة تذكرني ساخرة بالسحر الموضوع متسائلة **"هل هو نفس السحر الذي وضعته بنفسك..؟"**. الأكثر أهمية، هو ذلك الصوت الأنثوي المليء بالدلال الذي ينادي علي من حمام المنزل.. و الآن أيضًا..!

***

في تمام السابعة مساءً يبدأ عم صبحي في مسح سيارة يارا – فتاة يومي الجمعة والاثنين – استعدادًا لمغادرتها إلى منزلها. يحفظ الرجل جدول مازن القديم والمحدّث طبقًا للظروف الحالية، ويعلم أسماء من يأتون والأيام المحددة لكل زائرة. يقدم الرجل واجب مسح السيارة لتحصيل بعض المال من الضيفات، بالإضافة إلى ما يمنحه إياه مازن لزوم تحسين الدخل. تسببت الوباء المتفشي في درجة من القلق لصبحي، تخوّف لفترة من تداعيات قد

تؤثر على دخله الثابت القادم من نشاطه مع مازن، بيد أن مازن طمأنه أن كل ما سيتغير هو مواعيد الزيارات، فقط تماشيًا مع ساعات الحظر.. انتهي تنظيف السيارة ولم تنزل يارا بعد، مما قد يدعوا للقلق. لا لأن الانتظام الأسطوري لمازن قد اختل ولو لدقائق مما قد ينبئ عن كارثة ما، لكن لأنه قد يخسر المائة جنيه التي ستمنحها له، خاصة أنه – حسب جدوله اليومي – سيضطر إلى الانتقال لعمارة أخرى بعيدة نسبيًا..

الأمر يستدعي فكرة خارج الصندوق لأن مائة جنية في تلك الأيام "الغبراء" مبلغ يستحق اصطناع بعض الضوضاء للحصول عليه.

***

مازن: صوت إنذار سيارة يارا قطع ثلاث ساعات أخرى – لا أذكر أحداثها بعد الرسالة الثانية – أو الثالثة، لكن وضعي الآن ينبئ بالكثير من الاستنتاجات.. المعتوهة تدفعني من فوقها صارخة و منتزعة يديّ من حول عنقها.. تندفع نحو النافذة لتنظر ما حدث لسيارتها التي يصرخ إنذارها كالمجنون. صبحي اللعين يفتعل ضجة إما لاستعجالها أو لابتزازي لاحقًا.. السؤال الأهم الذي يدور في عقلي وأنا أشاهدها ترتدي ثيابها على عجل، هو ماذا كانت يدي تفعلان حول عنقها..؟ وماذا كانت تفعل يدي بالسكين من قبل قرب عنقي أنا..؟ و كيف يحدث كل ذلك دون أن يشارك عقلي في

أي مما يحدث..؟ في السبع ساعات الأُوَلْ، و الثلاث ساعات المفقودة الأُخَرْ..

ترسل يارا إليّ قبلة في الهواء بعد أن ارتدت ثيابها، ثم تخبرني أنني كنت رائعًا اليوم، و أن الوباء صب في قدراتي ما لم تتوقعه، ثم ختمت بتمني لو حدث حظر التجوال القائم الآن منذ زمن ليتطور أدائي بهذا الشكل المذهل..! ترتدي حذائها معقبة أنني أحتاج أن أكبح جماح نفسي قليلًا، و إلا قد أقتُلها في المرة القادمة..!

ثم تغادر..

لم تأت رسائل أخرى، ولم أُتعب نفسي كثيرًا في مراجعة الأحداث، فالتفسير في حالة سيناريو مسلسل اليوم واضح جلي، و أنا من يتجاهله. محاولة انتحار و محاولة قتل في أداء سريري تليا ارتباك غير مسبوق في عاداتي اليومية. قد يكون ذلك بسبب ذلك التغيّر المزري الذي نمر به والذي يكاد يقتلني مللًا.

يجب أن أدفع ثمن التعامي عن الحقائق حتى لو كان هذه الثمن هو المبلغ الفادح الذي يطلبه ذلك المعتوه لفك السحر المفترض.

لم أتعب نفسي كذلك في محاولة قراءة الرسائل، لأنني ببساطة من كتبها..! ليس كلها في الحقيقة، و لكن بداية من الرسالة الثانية. وأنا كذلك

من أرسلتها لنفسي مستخدمًا رقمي الثاني، و ذلك من باب التفاعل اللا-إرادي مع الرسالة الأولى المعتوهة التي ضربت هاتفي.. موهبتي الجديدة – التي أحاول تنميتها- أقامت مسلسلًا هابطًا تخيلت فيه نفسي أحاول الانتحار ثم أحاول قتل أحدى فتياتي، بعد أن بنيت دراما الحدث على فقداني للزمن، وهو ما لن يحدث أبدًا إلا بوفاتي.. انتصرت مرة أخرى وقتلت يومًا من أيام ذلك الحظر اللعين..

يكفينا هذا القدر من مسلسل رسالة السحر المدفون – تأليفي وإخراجي..

ربما أجرب غدًا مسلسلًا جديدًا يتعلّق برسالة المقبرة الفرعونية التي وجدها عمي تحت بيته..

غدًا يوم "سالي"، وهي تشبه نفرتيتي، وتناسب تلك الرسالة.

الزير عاصم

مشكلة باهر

المشكلة التي أتصل بك من أجلها..! أنني في ورطة رهيبة مع وبسبب ميار..

لماذا ميار..؟!

لأننا كنا منذ قليل في غرفة واحدة للمرة الثالثة في هذه السفرة، حين ألقت بقنبلة أنها تتوقع أن أزورهم في المنزل لخطبتها.. قالتها ببساطة وهي تعدل ملابسها بعد جولة مباحثات حادة و تفصيلية و عملية عن قدرة مهام العمل خارج البلاد مع وفود حكومية على توفير ملاذ آمن للمتعة.. المتعة يا عاصم لا الزواج..

قبل أن أحكي.. لا أتوقع أو أتقبّل أن أسمع منك تشفّيًا لأنني كسرت قواعد "الاستمتاع" التي طالما أعدتها على مسامعي، ولا تعد علي تقييمك لموقفي من "ميار" الذي ثبتت صحته..! فلا وقت ولا مزاج لدي لهذا الآن..

المكالمة من عاصم..

أنت تريد أن تكون زير نساء..! هدف سام- من وجهة نظري - لأن المرأة هي أجمل ما خلق الله على وجه الأرض.. لكن التحول لزير نساء يا صديقي علمٌ كأي علم، له قواعده الصارمة. اسمعني جيدًا.. وضعت القواعد لضمان استدامة الاستمتاع، و الأمر هنا لا يتعلق بالنتائج النهائية يا أخ باهر وإنما بمراحل الصيد، وقدرتك على أن تدفع امرأة أن تفتح لك ذراعيها – و أحيانا ساقيها – بدون شروط حتى لو لم ينته الأمر على فراش.. الفراش هو الهدية على الإبداع في الصيد و ليس الغاية..

أول القواعد أن زير النساء لا يرافق عاهرات، فكما يقول المثل "نكاح الجحش للجحش لا حرفة فيه"، و من يمتهنّ المتعة بمقابل لا صعوبة في جلبهنّ إلى مجالك المؤقت.. ثاني القواعد "لا تعاشر البلهاء، و لا تسمع لبلهاء أن تعاشرك".. و ميار بلهاء تعاقر الخمر، بلهاء خطرة لأنها ذات نفوذ، و بلهاء أشد خطرًا لأنها معك في العمل نفسه.. و بلهاء قاتلة لأن أباها من عيّنك، و ذروة الخطورة أنها تريد أن تتزوج، وأهلها قد وكلوا إليها هذه المهمة – مهمة جلب عريس..! أي أنها هي الأخرى في رحلة صيد قد تكون عن طريق عرض البضاعة كما ورطتك في علاقة معها، أو بطريقة وصف ما سترث من أطيان كما بدأت رحلة صيدها لك.

أنت كسرت أخطر القواعد، و ربما لا أستطيع أن أساعدك إلا بأن أنصحك أن تحاول تجنب العواقب، أو تحملها حتى تعبر العاصفة..

المكالمة من باهر..

نحن نتعامل مع رحلاتنا ضمن وفود العمل خارج القطر على أنها نوع من المميزات التي ننالها كل فترة.. هكذا يصنفها الكثيرون تحت بنود تتسق مع مفهومنا أنا وميار عن مثل تلك الأسفار. قد ينال الموظف السفرة من باب المجاملات لأبناء القيادات "كميار"، أو كرشوة لأحدهم، أو فرصة للتنزه وتغير الجو لآخرين، ربما تعويضٌ عن تخطي أحدهم في ميزات أخرى لأسباب خارجة عن الإرادة، كتصاعد رائحة فساد زائدة عن الحد، أو تبدية قريب لآخر أعلى في الرتبة.

مرة أخرى يا عاصم أرجوك.. بدون تشّفٍ أو استعراض لفلسفتك التي أيقنت – و الله العظيم – من عبقريتها.. وأرجوك، لا تُعد علي تقييمك لموقفي من "ميار" قفد ثبتت صحته..! لا أريد الآن إلا حلًا لمصيبتي، خاصة أن الأمر وصل إلى "أبو القمصان".

مكالمة "أبو القمصان"

باهر.. ما حدث مهزلة و قلة أدب لا تحتمل السكوت..

لا أستطيع معاقبتها كما تعلم لأن أبوها سينفخني بمجرد معرفة ما حدث – ولن يعرف بالطبع.. لذلك سيكون أغلب البلاء على رأسك أنت..

ماذا حدث...؟؟؟؟

ألا تعرف ماذا حدث يا أستاذ..؟ بالطبع فأنا من أقوم بكل العمل في مثل تلك السفريات "النجسة" التي تعربدون فيها على "قفاي"... أما أنت فتأتي إلى هنا لا لشيء إلا لتلهو ببنات النـــ... بالبنات – فهي ليست تحت تصنيف بنات الناس – لكنك هذه المرة عبثت مع الفتاة الخطأ و تريد أن "تخلع" كالعادة، لكنها لن تمر على خير...

لماذا لم تفتح لها الباب يا سافل عندما طرقته عليك وتركتها تزعج المحترمين أمثالي في منتصف الليل..؟ ما ذنبي أنا أن أفاجأ بطرقاتها على باب غرفتي، فأضطر لفتح الباب لأجدها بملابسها الداخلية و في حالة سُكر بين..؟؟

كل التصرفات وقتها كانت خطأ.. لو سمحت لها بالدخول ورآني أحد أفراد الوفد فأنا هالك لا محالة، ولو تركتها في الردهة ورآنا أحدهم فأنا

هالك لا محالة.. وأنا كبِرتُ يا فاسد يا فلاتي على "بهدلة" كتلك قبل المعاش بثلاث سنوات..

مكالمة باهر في طريق العودة

لا أملك إلا أن أضحك قبل أن أقر بأني لن أناقشك في توجيه أو نصيحة تتعلق بالنساء بعد ما حدث لي.. بلاهتي وعمق تجاربك واستنتاجاتك وتحليلك دفعتني لأتعامل معك كأب روحي رغم أننا في السن ذاته.. لا أدري كيف تفوقت في هذا المجال رغم تشابهنا في النشأة والتكوين والتعليم والمستوى الاجتماعي. لكن، لا تنكر أنني مفيد أيضًا.. فأنا مادة رائعة لتجاربك و استعراض فعالية قواعدك الصارمة و فلسفتك في الحياة..

وأعترف أنني للمرة العاشرة خالفت القواعد..!

وعليه فقد حُرمت من السفر في الوفود الخارجية للأبد، و تم نقلي إلى أسيوط تمهيدًا لإجباري على الاستقالة.. لا عبث مع فتيات يعملن في ذات المؤسسة مرة أخري، و لا عبث مع من يستطيع أباءهن إصدار أمر اعتقال بحقي لو عرفوا الحقيقة كاملة.. خاصة مع نوعية تسكر فتتعرى ثم تطرق باب رئيس الوفد في منتصف الليل لتحكي له تحت تأثير ما "طفحته" عن

مغامراتي معها بالتفصيل، حتى أن الرجل تقزز من مجرد السلام عليّ عند لقائنا في حفل ختام نشاط الوفد.. لكنه لم ينس طبعًا أن يوصيني بأن أسترد له قميصه الذي أعاره لها لسترها في تلك الليلة المشؤومة..

لقد كان مشهدًا يستحق التسجيل ونحن نقف أمام باب غرفتها طالبين قميص الأستاذ "مرسي أبو القمصان" الذي كانت محاولة تذكيره لها بما حدث مصدر ضحك هستيري أضاف لعقوبتي النقل لأسيوط كما أخبرتك.

على أي حال أثبت خبرتك يا صديقي العزيز.. ولن أتحرك في مسار العربدة مرة أخرى إلا حسب توجيهاتك.. سلامي لهبة زوجتك، و التي تصرخ مناديه إياك الآن..

أراك قريبًا سأصعد إلى الطائرة الآن و ألقاك في القهوة غدًا..

طلب هبة..

- عاصم.. تحتاج منّة أن تغيّر حفاضتها، و مِيرا تصرخ.. أنا منشغلة بإعداد الغداء، فلا تطل الحديث في الهاتف لو سمحت و ساعدت زوجتك المسكينة قليلًا..!
- "حاضر"..

كل شيء يمكن التحكم فيه إذا التزمنا بالقواعد يا هبة – احملي هذا الطبق من فضلك.. باهر خالف القواعد، و عليه أن يتحمل تبعات ذلك.. في حالة كـ "ميار" كسر المعتوه "كومبو" قواعد عدم إقامة علاقات مع زميلات العمل أو من هنّ لأسر تملك سطوة، ثم كسر المستوى التالي من القواعد و أقام علاقة معها و هي واعية، رغم أنها تَشربُ بكثافة.

– "هل انتهيت من تغير الحفاضة..؟"

انتهاك قاعد الخمر بلاهة مطلقة، فالنساء لا يُدمنّ الخمر كالرجال أيها المتظاهر بكونك زيرٌ خبير.. النساء يستطعن إيجاد وسائل ترفيه متعددة، ولسن جافّات القريحة مثلكم، أو ضعافٌ لا يحتملن مواجهة مشاكلهن فيهربون بانتظام للخمر مثلكم، الخمر للنساء استثناء يا زوجي العزيز.. ثم إن السيدة التي تسكر ثم يرتبط سكرها بعلاقة تالية سيكون لديها مشاكل أكبر من محاولة صيد عريس أولها وأبسطها "من كان معها أصلا..؟"..

ها.. هل دمرت منطقك..؟

حاول أن تعيد صياغة قواعدك حتي لا "يلبس المزيد من أصدقاءك في الحائط"، ويمكن أن تبدأ بقاعد أساسية و هي "بلاش نجاسة" من الأصل.

ناولني الطفلة، وألق الحفاضة في القمامة..

في قهوة بعرة

إحساس الذنب في نفس صلاح، و الذي غرسه أبواه فيه بنجاح مذهل بسلوك اللوم المستمر على مدار ربع قرن قتل نسبة معتبرة من استمتاعه بجلسة أصدقاءه على مقهى "بعرة" الواقع في مجاهل مساكن الشيراتون على أطراف حي مصر الجديدة. المقهى المشبوه الذى اعتاد أن يجمعهم رغم مكانتهم المهنية المحترمة كان مرتعًا لبغايا الحي وموزعي المخدرات لموقعه المجهول إلا لطالبي تلك الخدمات، كهؤلاء الأفندية الذين يحيطون بصلاح في جلسة سمر ستمتد إلى ساعات الصباح الأولى كما اعتادوا كلما ملكوا وقتًا.

أول مواضيع حفلة الليلة كانت مغامرة صلاح مع وحيد منذ سنوات.. مغامرة هوجاء لا تبارحُ ذهن صلاح، وتقفز تلقائيًا كمصدر مزاح ثقيل لإصرار وحيد على تذكيره جهارًا بما سماها "فضيحته" عندما اصطادا تلك الفتاة وعرجا بها على شقة وحيد ثم كان ما كان مما يتندرون به الآن، ويتلقاه صلاح بضحكات هستيرية وشيء من الذنب الكامن الذي ينغص نهاية كل ضحكة..

القلق من تبعات أفعاله كان نتيجة طبيعية أخرى لغرس حالة المذنب فيه، مما جلب عليه مزيدًا من الهواجس مع انتقالهم من وضعية الماضي البعيد إلى حالة المستقبل المستمر المتمثل في مغامرات مازن الجنونية.. أحد الخواطر كان حقيقة أن الدخان الأزرق الذي يفرض نفسه في نهاية كل جلسة سيذهب به إلى منزله في حالة نصف إغمائه، وسيعتمد على الحظ الذي لن يجعل سعاد زوجته أو إحدى ابنتيه يلحظون حالته.. الاحتمال القائم الآخر هو أن يلتقى أحد "الفلاتيين" الذين تجمعهم الجلسة مع إحدى رفيقاته في مغامراتهم المتعددة التي أقلع عنها صلاح بعد تجربته الفاشلة مع وحيد.

- أنت عارف إني تُبت..؟!
- و حياة أمك..!!

مدعي التوبة كان هذا مازن الذين ينادونه بـ "مُزَزْ" من فرط علاقاته المتعدة مع كل من تقع في محيطه وصولًا إلى "خُشاش الأرض" كما يصفهم "عبد الله" صديقهم الآخر والذي يسحبُ الآن نفسًا عميقًا من النرجيلة ويخرجه باستمتاع من أنفه تزامنًا مع رد مازن:

- أيوة يا جدعان أنا تعبت بقة من التنوع و قررت أستقر..
- إيه هاتتجوز..؟

ضحكة مجلجلة لم تَبدُ شاذة وسط محيط المقهى، تبعها مازن – كعادته – بسحب نفس عميق في شكل شخير قصير كتكملة للضحكة، ثم تابع و هو يعدل من وضعية نظارته الوقورة و يعيد رص الحجر الذي انطفأت نيرانه:

- لأ طبعًا.. هو أنا وش كد..؟ أنا قررت آخد البت فايزة حق انتفاع.. هو يعني هاتيجي عندي أنا وتقف ما الخَرْفَان دا – و أشار لـ"حسين سيد" و الذي ينادونه سيد – مقعد البت لبنى عنده بقاله سنة..
- حتى توبتك، هاتبقى توبة وسخة...

ضحكة متكررة شاركهم فيها صلاح، ثم سرح للحظة كعادته عندما يفكر في الوسط الذي ينتمي إليه بقوة. "سيد" الصديق متوسط الامتلاء الجالس رافعًا قدميه على كرسي مقابل، سبق مازن منذ سنة تقريبًا و اتخذ محظية ثابتة بنظام أطلق عليه صلاح ساخرًا نظام "محظية Subscription" .. محظية تقيم في مكان يملكه سيد الأعزب لحسن الحظ، و تقدم خدمات متنوعة له أو لمن يختاره من مجموعته المغلقة عدا صلاح الذي لم يكن مهتمًا بخدمات لبنى. سيدة البيت الخفي تقدم أيضًا خدمات تتعلق بالطبخ والتنظيف في بعض الأحيان. كل ذلك مقابل دخل شهري ثابت ومكان مبيت اختياري، ولا يمنعها ذلك من أداء خدماتها المعتادة في أماكن أخرى، لأن العرض من سيد لم يكن بنظام التَملُّكِ الحصري..

خلطة قذرة من موبقات متنوعة تُورث صلاح تقلبات معدية عند تذكرها، لكنه يمررها مقابل دفئ تبادل الحوار مع مجموعة يعرفها منذ عقدين من الزمن و لا يشعر بالانتماء إلا لها، و إن تحفّظ على المشاركة في كثير من نشاطاتها خارج إطار جلسة القهوة، وتملص بذكاء مبهر من كثير من المواقف التي ورطتهم فيها تلك النشاطات.. كالموقف الذي على وشك الحدوث الآن مع وصول "لبنى" إلى المكان ونزولها الصاخب من التاكسي المتهالك الذي اقتحم حدود المقهى كما اقتحمت لبنى بشكل صاخب حدود الجلسة بعنصر مزاح صنعته بموهبتها في القباحة:

- بقى يا ولاد الشـ****، أيديّا تتهري إمبارح و أنا بأحشي لكم الحمام و أطبخه، و بعد ما تتطفحوا – إلهى تتسمموا – مفيش خـ** يغسل المواعين و تسيبو لي الحوض طافح.. أخرتوني على الشِفت يا ..&*%@#

فهم صلاح أن الكونتيسة كانت المُنظّمة والمورّدة لحفل عشاء حضره أغلب من في الجلسة، وفهم أيضًا بالتبعية أن لسان لبنى سيكون مساهمًا رئيسيًا فيما تبقى من الليلة، خصوصًا مع خبراتها المتنوعة مع أغلب الحاضرين بحكم تعاقدها مع سيد والذي يشمله هو ودائرته المقربة..

مجرد وجوده في مكان به لبنى بمظهرها وعبارتها الفجة وضعت صلاح في ركن المذنب بشدة.. فتطلّب الوضع حيلة دفاعية نفسية معتادة لتخفيف وطأة الذنب واستحضار ما يحميه من ماسورة البذائة الْمُنتَظَرَة.. حيلة ثلاثية نفسية معقدة ابتكرها بعد معاناة لحل مشاكله في التواصل مع شعور الذنب المستمر. صلاح يرسم في العادة موقفًا تخيليًا يستحق فيه اللوم بالفعل، ويربطه بموقف قديم من مئات المواقف التي تعرض فيها لوصلة تقريع غير منطقي من أبوه أو أمه فيصفو ذهنه ليبتكر تصرفًا عبقريًا يخرجه مأزقه.

"وصلة تقريع واستهزاء لساعتين تبعها مصادرة كل وسائل التواصل التي كانت عبارة عن هاتف منزلي في ذلك الوقت". حدث ذلك في ليلة منذ عشرين عامًا، كان وسط حديث متصل على الهاتف مع حبه الوحيد فتدخّل والده ليقطع المكالمة مستدعيًا والدته لتشاهد خيبتها في ابنها الذي.....

لا يتذكر توصيف الوالد لجريمته وقتها لكنه يتذكر رده المرتبك بإشارة أنه يتحدث حديثًا يمكن أن يغير حياته.. لم يجد صلاح صيغة أخرى لمحاولة إيصال الأمر لأبوين يعتبران المشاعر الإنسانية الطبيعية "مياصة" تستوجب العقاب العنيف.. ربط نمط تلك الحياة أغلب مشاعر الابتهاج لدى صلاح بتوقّع تقريع ما كتقريع ذلك اليوم..

تبقّى الآن قبل أن تبدأ وصلة شتائم أخرى أن يتخيل موقفًا افتراضيًا يصلح التقريع الذي ناله عقابًا له.. الموقف الوحيد الذي يعتقد صلاح أنه يستحق أن ينال عليه ما ناله هو أن تكتشف زوجته معرفته بمثل "لبنى" التي تقف الآن على حدود الطاولة قربه، وقد لفت نظرها بالفعل لأنه وجه جديد ربما لم تره من قبل، عليه الآن أن يبادر بنتيجة حيلته الدفاعية وإلا سيكون في مرمى ومجال تقاريرها عن أفراد الجلسة والتي لن تسره بالتأكيد، وإن كان متأكدًا من إبداعها على المستوى الفكاهي.. نهض صلاح فجأة وتناول يد لبنى و قبّلها بشكل أرستقراطي، ثم قال:

- مساء الخير يا هانم، نورتينا..

نظرت إليه متعجبة ثم ضحكت، وأخرجته بالفعل من دائرة صواريخها الموجهة التي استمرت لساعة كاملة قبل أن تتناول مفتاح شقة سيد الذي أضاعته هذا الصباح و تسبقه إلى هناك..

- يا ابن الصايعة، فلتّ منها أنت زي الشعرة من العجين..

تكاتيك صلاح في الخروج من المأزق كان أن يمنحها احترامًا ما كتشويش على الجو العام للجلسة، مما أبعده عن مجال تقاريرها عن الأداء السريري لأغلب من حضروها..

- ما أصل واحدة زي دي متفلتش منها إلا بإنك تحترمها بشكل مفاجئ..

تعالت الضحكات، وتزايدت نغصات الذنب في نفس صلاح مع دوران أكواب المشروبات وسجائر الحشيش المتوارية في علب السجائر التقليدية حتى قرابة الثالثة صباحًا حين قرر صلاح أن الوقت قد حان لاستخدام ما تبقى من وعيه في العودة إلى المنزل

- ما تيجي يا نجم معانا، لسة السهرة فيها فقرة لبنى..

لم يقو صلاح على رد عبارة مازن إلا بإشارة متهالكة من يده أنه انتهى تمامًا و يحتاج للعودة إلى منزله، ذكره وحيد بخبرتهم المشتركة بعبارة لم يُجمّع كلماتها وإن ولّدت منه لطمة على رأس صديقه مع ابتسامة بلهاء..

لم يتبق من جلسة الأمس أي ذكريات في رأس صلاح و هو يقود سيارته إلى عمله في الصباح الباكر إلا مسحةُ صداع و شعور الذنب الثابت في جيناته والذي لم يبارحه خاصة مع احتمال أن تشتمّ زوجته رائحة دخان الحشيش العالق بسترته، أو احتمال أن يتضايق قائد السيارة التي تسير خلفه من بطئ قيادته، أو أن تلومه أمه على عدم زيارته لها منذ أسبوع، أو أن يتذمر حارس العقار من قذارة سيارته وهو يقوم بتنظيفها، أو اتجاه أي حديث متوقع أثناء يومه يتلمس فيه تغيّرًا في نبرة صوت محدثه مما يلقى احتمالًا أنه ضايقه بصورة ما، مما يجعله بصورة دائمة أضعف حلقات التفاوض..

قطعت خواطره مكالمة هاتفية من رقم غريب، و صوت امرأة غير مألوف على الجانب الآخر:

- أستاذ صلاح..؟

أول ما يتبادر إلى ذهن صلاح عندما يسمع صوتًا لا يعرفه على الهاتف أنه ارتكب كارثة، أو أن كارثة من الماضي عادت تطارده، تمامًا كما يفترض أن زوجته قد اكتشفت موبقة من موابقه وقت أن تتخلف عن رد مكالماته لفترة، أو تُغلق الخط عندما يتصل بها.. بصرف النظر عن وجود تلك الموبقة أو كونها فهمًا خطئًا لتصرف من تصرفاته أو عدم و جودها أصلًا..

- أيوة يا أفندم مهندس صلاح مع حضرتك..

أغمض عينيه في انتظار الكارثة حتى سمعها:

- حضرتك أبو بنت من بناتي..

اتسعت عيناه بشدة، وتصبب عرقًا بشكل متزايد، وارتجفت يده الممسكة بالهاتف حتى أنه انعطف يمينًا بشكل حاد جلب عليه سبابًا مقذعًا من السيارات المجاورة. أوقف السيارة و تهدج صوته و هو يرد:

- على فكرة أنا كنت مع وحيد بس لما أخدناك من قدام السينما من سنتين، و ملمستكيش..... افتكري لما حاولتى تقربي مني دخلت الحمام وحبست نفس جوة لحد ما وحيد خلص معاكي..

أنا مقعدتش في الشقة إلا لأن مكانش معايا عربية و الحتة كانت مقطوعة.. بس لو عايزة أكلم ــــــــــــ

قاطعه الصوت بنبرة حادة غير مصدقة:

- وحيد مين يا خَرْفَان أنت.. أنا مدرّسة الكيمياء بتاعة بنتك.

عاصفة

- أرى أنك تحاول أن تثبت أنك إنسانٌ ظريف ومثقف و ربما وسيم أيضًا، في حين أنك لا تمتلك ذرة من أي من الصفات الثلاثة.. فدعاباتك سمجة أكاد أتقيأ من فرط بلادتها وقدمها، ولو كنت رجلا لذكرت لك لفظًا تصف دعاباتك بدقة أكبر.. أما معلوماتك التي صدعت بها رؤوسنا منذ ما يقرب من النصف ساعة، فابن أختي الصغير يستطيع أن يخبرني بها، بل ويعرضها بأسلوب أفضل منك.. بالمناسبة، أقترح أن تقوم بغسل يدك بماء النار ثم إحراقها ثلاث مرات لتزيل أثر تلك المادة التي علقت بها من أثر دس أصابعك في شعرك ثلاث مرات في الدقيقة، عامة هو لن يتحرك من مكانه إلا بقنبلة نووية أو ما شابه..

شعر الرجل أنه عار تمامًا أمام كل مدعوي الحفل الذين كان منهم، في حين وقفت السيدة صاحبة العبارة وقد عقدت يديها على صدرها، وأتبعت عبارتها التي تعمدت أن يسمعها كل من في الحفل بنظرة متحدية رمقته بها.. بالطبع لم ينطق الرجل بكلمة واحدة في حين تابعت بشكل أحرج حتى السيدات الثلاث الآتي كن واقفات معها..

- **أقترح عليك أيضًا أن تجمع ما تبعثر منك، و تبحث لنفسك عن مكان آخر تقدم فيه عرضًا لسماجتك..**

لم يُكذّب الرجل خبرًا وانطلق يعدو بالفعل حتى ابتعد، في حين نظرت السيدات إليها غير مصدقات لما حدث.. مضت بضع لحظات حتى استطاعت إحداهن الكلام بصعوبة..

- لم يكن من المفروض أن تحرجي الرجل بهذه الطريقة.. فالرجل لم يكن بهذا السوء..

نظرت إليها بنفس النظرة المتحدية و قالت..

- تزوجيه إذن، فأنت لم ترفعي عينيك من على ملامحه الوسيمة طوال وقفته معنا..

تلجلجت السيدة وصدر منها بضعة همهمات ثم قررت أن تجد لنفسها مكانًا آخر ولكن السيدة صاحبة العبارة تابعت..

-أنا أكره التكلف والتصنع، ولا أبالى ما إذا كان معجب بك أو بواحدة من الواقفات معنا، لكنه سمج، و لست مضطرة لاحتمال سماجته، فأنزلت الستارة على عيني و سلخته هذا هو الأمر بكل بساطة..

لم تجد السيدة ردا، وهذا في الواقع هو موقف كل من يحاول التعامل مع هذه العاصفة المتحركة، كانت تملك لسانا كالسوط يلسع بدون تميز، وقابلية للهجوم الشرس تذكرك دوما بالثور الذي أطلق وسط البشر وأشعلت النيران في ذيله بعد تغمية عينيه، و...

- آي... عليك اللعنة أيها الأعمى اللعين..

عاصفة جديدة في الطريق إذن..

ها هو أحد تعساء الحظ لم يجد في الحفلة بالكامل إلا هذه السيدة ليصطدم بها، بل إنه لم يكتف بالاصطدام، فقد كان معه كوب من العصير انسكب بعضه على ثوبها.. أدركت السيدتان الباقيتان معها طبيعة الفضيحة القادمة فتنحيتا جانبًا، و ابتعدتا عن المكان لتفسح المجال للإعصار القادم الذي لم يلتفت لاعتذار الرجل المهذب واندفع وقد صار من المستحيل إسكاته..

- آسف..؟ آسف على ماذا بالضبط..؟ آسف على أنك لم تكلف نفسك بالنظر لمسافة متر واحد أمامك، أم آسف لأنك انشغلت بتوزيع نظراتك على مفاتن السيدات في هذا الحفل ولم تعبأ بطريقك الذي تسير فيه..؟

-أؤكد لك أن شيئا من هذا لم يحدث يا سيدتي.. و أنا آسف مرة أخرى..

-سأبلغ عامل المغسلة أسفك عندما أذهب بهذا الفستان إليه أيها الأعمى، ولكنه لن يقبل بهذا الأسف و سيصر علي أن أدفع له فاتورة الغسيل..

-يسعدني أن أتحملها عنك..

-تتحملها عنى..؟ عالج بها عينيك لترى أمامك جيدا، و اغرب عن وجهي الآن قبل أن أبحث عن أقرب كوب من عصير لأضيف لفاتورة المغسلة البدلة التي تلبسها..

ابتسم الرجل ابتسامة محرجة قليلا ثم مضى لبضع خطوات لكنه توقف فجأة و عاد إليها ليقول بنفس الصوت المهذب..

-سيدتي هل لي أن الفت انتباهك لأمر ما..؟

التفتت إليه و قد أغنت ملامح وجهها عن التعريف بنواياها.. لكن تلك الملامح المسعورة زالت في لحظة واحدة وحل محلها دهشة بلا حدود.. كانت ثورتها العارمة قد منعتها من ملاحظة ملامح الرجل ولو لمرة واحدة، و لكنها لاحظتها الآن و تحديدا لاحظت ما قد عاد ليقوله لها بهدوء مهذب قبل أن يستدير منصرفا..

-سيدتي أنا بالفعل.. أعمى..

زحـام

حكاية عشوائية

كوكب الأرض متسع بحق.. مائة و ثمانية و أربعون مليون كيلومترًا مربعًا من اليابسة يعيش عليها نحو ثمانية مليارات آدمي، يشكّلُ منهم "سيد الضبع" فردًا واحدًا يقف في غرفة معيشة شقته التي تمتد منها شرفة صغيرة تُظهر للمارة طلاءً أزرقًا رخيصًا أحاط جدرانها بطابع غير مريح، خصوصًا مع تساقط بعض أجزاءه العلوية عن بقع بيضاء كالبرَصِ في جلد رجل أسمر.. "سيد" في الخامسة و الخمسين من العمر.. خمسة وخمسون عامًا تركت كل سنة تجعيده في وجهه، أو خيبة وانكسارًا في نفسه أو مرضًا ينهشُ جسده.. لم يعد يسيطر على ذهن "سيد" في الأيام الأخيرة إلا تساؤلٌ عن جدوى حياته التي يشعر بقوة أنها تقترب من نهايتها.. لم يدر من أين جاء التساؤل، لكنه تصاعد مع حلول عيد الأضحى الذي يمنحه فرصة من الفرص القليلة لإشباع شهوة كالأكل، و التي تذكره برفاهيةَ التنبه لحقيقة أن في الحياة رغبات وملذات ما يمكن أن تمنحه سعادة ولو وقتية غابت عن طفولته البائسة المنسية، ومراهقته التي لا يذكر منها غير سجائر الحشيش القليلة التي كان يبتاعها كلما جمع بعض المال، ورجولته وكهولته اللتان دمرتهما مسؤوليات الزوجة التي توفاها الله منذ سنة، والأبناء الأربعة الذين

تزوجوا و رحلوا إلى بيوتهم.. آلام عادية متكررة جاءت من أمال عادية جدًا تَلخّصَ تحقيقها لاحقًا في شقة ضيقة في مجاهل حي المكس بالإسكندرية يطل من شرفتها الآن متأملًا من الشرفة التي تبعد مترين فقط عن شرفة شقة "سليمان" الذي يملك هو الآخر واقعًا شبيهًا وإن كان أصغر سنًا.. زوجةٌ عادية أنجبت له أطفالًا عاديين، سيظلون يمنحونه أهدافًا عاديَّة متسلسلة عبر مراحل تعليمهم الأقل من العادي.. أهداف قد يمكن لـ"سليمان" أن يكمل بها حياته مؤقتًا حتى اليوم الذي يجدوه فيه ميتًا على سريره، أو يسقط فيه ميتًا أثناء عمله تحت وطئة السكري الذي لم يجد له إلا علاجًا عاديًا يمنحه القدرة على الوقوف على قدميه، قدرةٌ منقوصةٌ يكمّلها بحقيقة أن عمله هو الحائل الوحيد بينه وبين الموت جوعًا. قد يضطر "سليمان" يومًا إلى بتر ساقه كما حدث مع جاره الآخر "محروس" القاطن في الشارع المقابل.. الشارع الذي يكاد لا يتسع لسيارة واحدة، ورغم ذلك يصر "طارق" سائق "أوبر" على أن يمر بجانب سيارة "سلامة" القادم في الاتجاه العكسي كي ينهي رحلة بدأها "سمير" وزوجته "سها" اللذان قررا أن يقصدا الإسكندرية ليوم واحد بغرض "تغيير الجو" و الهرب من وطئه القاهرة ورتم حياتها المجنون، خاصة مع إجازة عيد الأضحى التي تلت إجازة نهاية أسبوع حافل.

تقترب السيارتان و يطوي كلا السائقين "طارق وسلامة" مرآته كي لا تتحطم و يعبران بمعجزة ما، لا تقل عن معجزة بقاء "محسن كفتة" – كما يلقبه أهل المنطقة – حيًا حتى اليوم رغم توقف قلبه أربع مرات من قَبل جرّاء جرعات مخدرات زائدة، نجا "كفتة" ليتحول إلى ذلك الزومبي الممتلئة ذراعاه بالأوشام والهائم على وجهه في الشوارع المحيطة بمنزل "سيد" و"سليمان" و"محروس" و"رامي" والذي تتقارب فيه البنايات حتى يمكن لكل جار أن يصافح جاره المقابل من شرف المنزل دون حتى الحاجة للانحناء..

"رامي" مشكلته أكبر من ذلك بكثير، حيث يحاول منذ سنة تقريبًا أن ينال ذلك الركن المتسع في الشارع المقابل للقهوة التي يمتلكها.. تكوّنتِ المساحةُ التي تقارب السبعين مترًا تلقائيًا كنتيجة لرص بنايات الحي عشوائيًا في تلك المنطقة المتاخمة لحي المكس. الركن يبدو مثاليًا كامتداد لقهوته الصغيرة التي يعتاش على نشاطها القانوني في أغلب الوقت.. كُلُّ ما يحتاجه هو أن يبدأ في إزالة أكوام القمامة من ذلك الركن المنعزل الذي اتخذه سكان المنطقة مقلبًا لقمامتهم التي لا تُرفع أبدأ، حتى إذا ضاق الركن بقمامتهم وزعوها بالعدل على أركان بناياتهم حتى صارت أكوام القمامة من العلامات المميزة لتلك البقعة الصغيرة، حتى أن معارضة "زكريا" العنيفة

لرغبة "رامي" في مد بساط قهوته ليشمل تلك الساحة بدت كمعارضة لإزالة القمامة أكثر من امتداد القهوة، وهي حقيقة توارت عن "رامي" لأنه لم يعرف أن زكريا قد دفن "أسماء" – و هو الاسم الذي أطلقه عليها لأنه لم يعرف اسمها – في تلك الساحة منذ عامين وأربعة أشهر، بعد أن اختطفها هو "علاء سرنجة" و اغتصباها في بدروم منزله، و فعلتها الفتاة و قررت أن تموت تحت وطئ الصدمة، فجعلا قبرها تحت أطنان القمامة. مات "علاء سرنجة" منذ عام فاطمأن "زكريا" لموت سره الذي يهدد "رامي" الآن باحتمالية فضحه رغم أنه صب الكثير من الخرسانة فوق طبقة المطاط التي وضعها فوق الجثة لضمان عدم اكتشافها..

لم يقلق موقف "زكريا" "رامي" الآن أكثر من الخطوة التالية المطلوبة منه و هي رشوة "فرج" موظف الحي الذي أتي أكثر من مرة تلبية لشكوى السكان من تعاظم جبال القمامة، فلم يُفد بعد معاينته إلا بأنه لا يستطيع عمل شيء، لأن كل بنايات تلك الزنقة غير قانونية، رغم أن الحي قد وصّل لها المياه والكهرباء بمعجزة ما.. بالطبع نال شطائر الكباب من حاتي "بلبول" رغم سلبية إفادته، لكن الكباب كان لمجرد أن يأتي إلى المكان للمعاينة فقط، ولم يُناقش أحدٌ معه أثناء الاتفاق إصدار أي قرار، حيث أن لذلك تسعيرة أخرى يجب على "رامي" أن يستشير أحد المقربين من "فرج"

كي يعرفها، بحيث لا يمانع أن يمنحه تلك الرخصة مقابل ربما بضعة ألاف يمكن أن يوفرها بصعوبة من بيع مزيد من الحشيش تحت ستار قهوته، أو مقابل مشروبات مجانية لـ "فرج" طوال عمره في الامتداد المستقبلي للقهوة التي اتخذها الكثير من شباب الزنقة مرتعًا للجلوس بلا هدف لمناقشة أحلام و طموحات لن تتحقق.. تلك الأحلام أحيانًا تشكل مهربًا لـ"فادي" من حقيقة أن حياته أصبحت تتلخص في أعداد لا نهائية من أحجار معسل القص – المغشوش غالبًا، أو الوقوف على ناصية العطفة الثالثة مع صديقه "صموئيل".. العطفة الثالثة لها ميزة خاصة كلفتها الكثير من العراك والشتائم وأحيانًا الدماء عندما فقدا ثالثها "علاء سرنجة" في مشاجرة عظمى نالوا بها حق الانتفاع بالعطفة والسيطرة عليها، فلم يعد أحد يعترض على وقوفهم يدخنون الحشيش هناك، بل لا يشاركهم أحد في وقفتهما على رأسها مع من يستضيفونه أحيانًا..

"العطفة الثالثة" تقع مع نهاية شارع متسع امتلأ جانباه بجلود الأضاحي المغمورة بالملح كتمهيد لمراحل دباغة تتم في الهواء الطلق وسط حي سكني مكتظ، مما جعل تلك الأيام مميزة برائحة لا تطاق، رائحة مختلفة عن الروائح الأخرى – التي لا تطاق أيضًا – و المنبعثة من أكوام القمامة وروث الأحصنة الجارة للعربات التي تمرح في المكان حاملة زائري المدينة

الساحلية.. بيد أن ميزة العطفة الكبرى هي أنها آخر نقطة في التكوين العشوائي للمنطقة، وبداية الطريق الرئيسي الذي يقود عبر المكس إلى منطقة رأس التين ثم العجمي في اتجاه ووسط الإسكندرية في الاتجاه الآخر.. الطريق يمر منه دائمًا بعض الحسناوات اللائي يعملن في المطعم السياحي الكبير الذي كان يقصده "سمير" وزوجته "سها" كنشاط رئيسي لليلتهما الوحيدة في الإسكندرية، والتي كبدتهما ثروة صغيرة لقضائها في فندق ذو خمس نجوم، و عشاء فاخر في مطعم أسماك يقع على البحر مباشرة..

تفرّسُ تفاصيل الحسناوات العاملات في المطعم كان نشاطًا يستحق أن يتقاتل عليه شباب المنطقة رغم أن مرورهن يتكرر كل يوم كل حسب ورديات‌هن.. تمر الفتيات بزي المطعم المثير أو بملابسهن العادية لمن يتاح لهن تغير ملابسهن قبل مغادرة العمل، ثم يركبن المواصلات من نفس النقطة قرب العطفة الثالثة.. لكن "رنيم" ذات العينين الخضراوين الشفافتين كانت الهدف الأساسي لـ"فادي" وأحيانًا "يامن" الذي كان يتخذ من صداقته لـ"صموئيل" سببًا لأن يقف على العطفة محملقًا في تفاصيل تلك الحسناء الممتلئة صاحبة العينين العفاريتيتين و التي تقف كل ليلة بانتظار المشروع (الحافلة الصغيرة) ليقللها غالبًا إلى منطقة بحري حيث تعيش..

"رنيم" لاحظت نظراتهم يوميًا دون أن تفرق بينها أو بينهم، كانت متأكدة أن تحرش هؤلاء الصبية بها بصريًا وأحيانا بلمسات خاطفة عندما يعلو أثر الحشيش على عقولهم ضريبة يجب أن تدفعها مقابل شيء ما لا تدركه الآن.. ربما لاحقًا، أو ربما عقاب من الله على خلعها للحجاب تلبية لشروط العمل في المطعم السياحي.. جزء منها كان يؤمن بأن الله لا يقّيم الأمور بهذه الطريقة، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في تلك الخاطرة التي ألقتها صديقتها "زينب" في نفسها يومًا عندما مرت "رنيم" بعاصفة تحرش جماعي أفسدت أسبوعها بالكامل حتى أنها فكرت في الانتحار، ثم عدلت عن الفكرة، أو أجلتها لسبب لا تذكره.. اتسقت "رنيم" مع واقع أن هناك ما هو أسوأ في الطريق لحياتها، فلم تعد تبادل ملوك العطفة النظرات، بل كانت تعبر مطرِقةً وكأنما تغض بصرها عنهم.. فهمت بعدها بشهور وهي تفكر في سبب لإطراقها أثناء جلوسها في "المشروع" أنها أعرضت عن تأملهم اشمئزازًا.. اعتبرتهم جزءًا من حياتها المثيرة للاشمئزاز، جزءٌ من القمامة المنتشرة في المنطقة، والتي أعادوها حتى لم يعد يمكن تميزهم عنها.. ناهيك أن وجود تلك الأكوام سيطر على الواقع في تلك المنطقة – و مناطق أخرى – حتى أنه لم يعد يضايق أحدًا، تمامًا كتواجد

هؤلاء الصبية في حياة "رنيم" وصديقاتها اللائي صاروا يعتبرونهم أكوامًا إضافية لأكوام قمامة منتشرة في حياتهن..

طبقات من القمامة جعلت "يسرا" تقرر الاستقالة بعد أن أكدت لـ "رنيم" وجهة نظرها عندما حكت لها أن "كريم عِرسة" - كما سمعتم يلقبونه ويهنئونه بعد فعلته - تجرأ اليوم و مد يده لامسًا إياها سريعًا و هي تهم بركوب المشروع.. "يسرا" في لحظة صراحة أمام عيني "رنيم" المريحتين اعترفت أن أكثر ما آلمها بعد فكرة الانتهاك هو طبيعة اللمسة.. لمسة لا يمكن أن تكون بغرض استثارة أو شبق أو عشق أو حتى شهوة.. بل هي كلمسة كلبٍ يطارد سيارة بلا هدف فتوقفت السيارة فجأة ليصطدم بها ثم يعدوا هاربًا.. لذلك مرت مرور "بصقة في البحر المتوسط ".. بصقة بصقها "عرفان" العامل على الحفار العائم قبالة المطعم السياحي الكبير الذي يتناول فيه الآن "سمير" و زوجته طعام العشاء..

بصقة في البحر المتوسط لن تفسده، لكنها قد تفسد حياة إنسان يعيش في نقطة وسط مائة و ثمانية و أربعين مليون كيلومتر مربع من اليابسة..

سياق و سط مليارات السياقات الأخرى تكوّن حيوات متعددة..

سياق حياة واحدة، من المحتمل أن يخلق الاعتياد عليها عقدة لقصة يكتبها كاتب مختل، قرر أن يصيغ حكاية بلا عقدة أو حل أو بداية أو وسط

أو نهاية.. حكاية عبارة عن بقة ضوء تتحرك عشوائيا على أشخاص في حي في مدينة في محافظة في بلد في قارة وسط عالم متسع، لكنه ضيقٌ في الوقت ذاته..

حكاية عشوائية..

لكنها تبقى الحياة اليومية التي اختارها البعض..

مؤنس و دوائره

(١)

ثلاثة أيام تفصل مؤنس عن محاضرته المخططة في أثينا. التحضير لم يكن مشكلة أبدًا بالنسبة لمؤنس، فالمحتوى الذي يقدمه متكرر و عائم بشكل لا يصدق رغم نجاحه المضمون. كل ما يحتاج إليه أن يعيد صياغة محاضراته السابقة بشكل مختلف مع مجموعة من الجمل البراقة و بعض من أقوال الحكماء و النشاطات الفارغة التي يحبها الحضور الذين أتو ليمرحوا.. خلطة تنميته البشرية مكتملة تقوم على قاعدة "بقدر زيادة "الهلس" زادت جاذبية التدريب مهما كان عنوانه برّاقًا".

بدأ مؤنس التحضير برسم دائرة سماها دائرة الحكمة ثم قاطع معها دائرة أخرى سماها دائرة البؤس، ثم تخيل أن دائرة أخرى تسمى دائرة العطاء فرسمها وأضاف بعدها دائرة رابعة سماها دائرة الأنانية.. تأمل دوائره المداخلة ثم قرر أن الخلطة يجب أن تحتوى دائرة أخيرة و يجب أن يكون اسمها الحب. ستكون المحاضرة عن نقطة التقاء الدوائر الخمسة لكن المعضلة العظمى التي الآن هي اسم تلك المنطقة.. وهو ببساطة لا يعرف..

(٢)

يُصرّ مؤنس في محاضراته أن الصدفة كلام فارغ، وأنه "لا مكان للصدفة في امتزاج الطاقة الإيجابية بالرؤية المستقبلية المبدعة لرواد الأعمال وموجهي الحياة..". ظاهرٌ يوحي بالعمق والحكمة وباطن هو "هذيان مقنع" كما لا يعلم أحد إلا ندرة قد تحاول البحث الموضوعي، تدرب على التعامل معهم بسياسة الصوت العالي أو "الطبل البلدي" كما يطلق مؤنس عليها.

الصدفة واقع، وما تستحضره من ذكريات وأحداث هو ما يصبغها بقناع عمق زائف أو حتى صبغة الماورائيات. لم يزر ذلك اليقين المعاكس ذهن مؤنس حتى قاطعت رسالة "ريما" التي وصلته على لوحه الرقمي جملة في حلقة المسلسل الذي يشاهده منتظرًا طائرته الأولى من أمريكا إلى بريطانيا في طريقه لليونان.

"منذ ألاف السنين كنت أعذب روحًا في الجحيم، أنت تعرف أنني أتفنن في ابتكار وسائل تعذيب تليق بكوني الشيطان.. كنت أعذبه يوميًا لمئات السنين، وكان يصرخ طلبًا للرحمة وأن يتوقف العذاب ولو للحظات، وبالطبع لم آبه لأي من صرخاته.. حتى جاء يوم و أُصبت بالملل.. لم أذهب إليه لبضعة أيام، وعندما عدت إليه لتعذيبه بعد تلك الفترة وجدته يبكي

قبل أن أبدأ و يصرخ فيّ "أرجوك.. لا تتركني وحدي مرة أخرى، وجودي بدون ما تفعله كان أقسى علي من العذاب الذي تسومني إياه كل يوم".. تأملته للحظات ثم تابعت ما أفعل"

من مسلسل لوسيفر - الموسم الثالث

قاطعت رسالة "ريما" المشهد بعد غياب لبضعة أشهر.. هي فقط تقول "كيف الحال..؟". مؤنس يعلم أنها ستطلب شيئًا بعد "كيف الحال..؟" من منطلق يقينها أنها تسيطر عليه بدائرة الحب التي منحها إياها، الدائرة التي تقبّل كلاهما مراده منها و إلّم يفصح عنه.. وضعته "ريما" في منطقة رمادية اختارتها له، منطقة تعود إليها بعد كل خذلان في بحثها عن حب يناسبها خارج دائرة حب مؤنس الافتراضي لها، و الذي لا تريده و لا تحترمه لكنه مفيد في بعض الأحيان. منطقة قِبلها هو متطلعًا للوصول لما تخلّقت تلك الدائرة في نفسه من أجله.

مؤنس هذه المرة مع عودتها عقب فترة غيابها الأخيرة لم يبك كالمعذّب، ولم يستجد ألا تغيب عنه ثانية و إلّم يكن قد نال بعد ما يريده..

ومسح الرسالة.

(٣)

عرف مؤنس في طائرته الأولى متجها لمحاضرته أن السيدة التي ستجاوره هي أجمل من رأى رغم سنوات عمرها التي تجاوزت الخمسين ببضع سنوات. الوجه مجرد آلة طباعة لتفاصيل ما ترسمه عليه الروح من رونقها أو خبثها، و العين تنال فرصة واحدة فقط في نظرتها الأولى لتدرك ظل الروح على الملامح. مؤنس مُنح نظرته الأولى فرأى تفاصيل روح المرأة التي ستجاوره في الطائرة طوال عشر ساعات هي المسافة بين "نيو أورلينز" و"لندن" في طريقه إلى أثينا.

أيقن صحة إحساسه مع تجاذبه أطراف الحديث معها، ثم نسجت أطراف الحديث حوارًا عرف فيه أنها راهبة ومدرّسة في مدرسة الكنيسة الكاثوليكية، تعيش وحيدة في "ساكرامنتو – أمريكا" وتتجه لبلدها "برشلونة" لحضور زفاف أختها. حديثها وآراءها المتزنة ورؤيتها لتطور علاقتها بالرب وعلاقتها بطلابها وثقافتها المتسعة ألقى في نفسه معنى جديدًا للحكمة، جعله يتجاهل لمرة من المرات القليلة رغبته الفطرية في الإدلاء بدلو كلام فارغ لا يعدو عن سفسطة معنى بسيط ويستمع إليها فقط بكل جوارحه.

(٤)

"البؤس دائرة مكتملة.. فالمجتمع يصب بؤسًا فيمن فيه، و محيطك من البؤساء يصب الكثير في بؤسك لدفعك للتوحد معه في بؤسه أو على الأقل مشاركته فيه.. لا يوجد بائس يبحث عن حل، لأن الوصول لمرحلة البؤس يولّد شعور الضحية الذي يتحول لإدمان..

البؤس يتوحد لأن مصادره متشابهة.. كمثال: الندم أو الإحباط.. القرارات الخاطئة التي تؤدي إلى اختيارات يتطلع الإنسان إلى خلافها بفطرته المتطلعة لما لا يملك، فيتوهم أنها اختيارات خاطئة"

هل كرر مؤنس كلمة بؤس كثيرًا في مقدمة محاضرته التي كتبها أثناء انتظاره للقطار المتجه لفندقه في أثينا..؟ تساءل للحظات ثم طوى صفحة مفكرته و فتح هاتفه المحمول باحثًا عن اسم الراهبة في صفحات التواصل الاجتماعي..

حديثها عما تحاول فعله و إيصاله للأطفال التي تدرس لهم الإسبانية و اللاتينية و الإنجليزية.. إحباطها من تغيّر مبدأ التعليم إلى عملية حشو تفاصيل لا تُشكل شخصية المتعلم بقدر ما تزيده بؤسًا و بعدًا عن الهدف الأسمى للتعلم.. رأيها في فكرة التعلّم و كيف أنه الفارق الجوهري بيننا وبين الملائكة والشياطين أوقع بينهما رابطًا لم يتخيله.. رابطٌ تعاظم مع

حديثها عن نظرتها للدين والإيمان والرب.. رابط أسال دمعة خفية من عينه عندا استأذنته لتبارك طعامها قبل أن تتناوله حتى أنه ظل يتأمل وجهها الهادئ أثناء نومها في صمت. أُخذ مؤنس بحديثها حتى أنه نسي أن يسألها عن كيفية التواصل معها بعد أن احتضنها مودعًا في مطار لندن حيث افترقا..

لم يكن يعرف إلا اسمها "جورجينا بيرس" و أنها جذبته بدائرة أخرى لم يكن يتوقع أنها حقيقية.. دائرة العطاء التي قالت عنها أن "الأمم والحضارات تُبني بوجود ذلك الجيل الراغب والمستمتع بفكرة العطاء بدون مقابل..".

وعليه فإن البؤس قد يكون اختيارًا.. هكذا قالت "جورجينا"

(٥)

ظاهر مؤنس أنه شخص ناجح، ذو دائرة اجتماعية متسعة، يحبه الكثيرون ويستمتعون بمحاوراته وقدرته على المزاح. أقنع نفسه بأنه شخصية قيادية غير مسبوقة بعد قراءة كتاب "السر" الذي فتح عينيه على الحل السحري لكل مشاكل البشرية في توائم تام مع استراتيجية "الاستسهال" التي يتبناها فيما يقدم.. لكن ما يمر به الآن مختلف.

بقدر ما آمن مؤنس بأن الابتعاد عن "السلبيين" كما يصفهم هو "جوهر السعادة الذاتية و الاتزان النفسي" كما يحاول إقناع طلبته، بقدر ما أيقن بأن التعميم الذي يعتنقه يخلق دائرة أنانية غير محدودة. دائرة تشتهي من المشاعر والبشر جوانبهم المشرقة أو التي يريدها فقط، أيًا كان مستوى قربهم من صانع الدائرة.

إيمان مؤنس بتلك المبادئ ما كان ليضر أحدًا لولا أنه اختار أن ينال من دائرة الحب جانبها الممتع فقط فخاض عشرات التجارب التي تطلع فيها لرعشة الحب الأولى بدون أي التزامات نهل من علاقات متعدد كثيرًا من المتع التي أنهاها بِطُرقٍ غريبة أحيانًا حتي أنه أنهى أحد علاقاته لمجرد بعد مكان سكن فتاته عنه دائرة سكنه..

لذلك تعلق بـ"ريما" التي لم تتجاوب معه إلا في حدود ما تريد هي فلم "تَبْرُم على مَبْرُومِه" كما يقول العامة، وربما أيضًا لذلك أحس بكثير من الانهزام لأنها تنال دومًا ما تريد منه ثم تختفي دون أي إشعار، ولا تعود إلا عندما تكون في حاجة لخدمة جديدة مستغلة معرفتها – التي افترضها – بغرضه من تلك العلاقة..

نهض فزِعًا من قيلولته في فندقه الذي يقع في حي متوسط بجوار وسط مدينة أثينا على حلم ربطه فورًا بدائرة الحب التي كان يفكر فيها قبيل نومه مباشرة.. المحاضرة بعد غد، ولم ينته من تحضيرها بعد، ويزداد تيهًا مع كل تطور في الخوض في محتوياتها التي بدأها بفكرة "دوائر الحياة، لكنها انتهت به إلى خوض كثير من الحقائق مما جعله مرتبكًا بحق..

يستخدم مؤنس في العادة أحلامه المحورة بتصرف في محاضراته كنوع من بث الأمل، لكن الحلم الذي هاجمه الآن وضعه أمام حقيقة لا يستطيع وضعها في محاضرته التي تعتمد على كثير من الفنتازيا المطعمة بقليل جدا من الحقائق.. و"كثير من الحقائق يفسد الطبخة لذلك يجب تجنب الحديث عن الخبرات السيئة لأنها لا تصلح كمادة خام لما نبيعه" كما نصحه أحد معلميه في شركة سابقة.

حلمه الذي خرج منه للتو لا يمكن حكيه إلا ربما لشخص في نقاء "جورجينا" التي ستتفهم كونه خاطئًا يبحث عن سكينة الاتساق مع الذات خاصة إن فهمت مضمون الحلم.. تخيلها معه كي يكتب في مفكرته ما يمكن أن يخبرها به يومًا:

" يراودني هذ الحلم الغريب منذ فترة.. أقف أمام "ريما" وأنا أعلم ما أريد منها للبدء في خطة الخروج من تلك العلاقة، أقف موقنًا أننا نتعامل مع بعض بذات الأسلوب.. فهي تريد حلب ما أستطيع منحه لها بعلاقاتي وخدماتي غير المحدودة وأنا أريدها في الفراش..

في اللحظة التالية من حديثي معها أفقد السيطرة وأقضي حاجتي على سروالي فجأة، لكني للعجب لا ألتفت للأمر وأتابع حديثي معها ثم أنتقل لأخرى وآخرين.. الأعجب أنني أعرف أن سروالي يحوى الكثير مما قضيته فيه لكني أتحرك بشكل عادي جدا من وجه لآخر.."

ستخبرني "جورجينا" أن ذلك اعتراف ضمني بطبيعة حياتي التي اخترتها، اعتراف يستحق أن يضاف لدائرة الأنانية أو يخلق دائرة أخرى قد تكون السادسة..

دائرة الانحطاط..

(٦)

"البؤس، الحب، العطاء، الحكمة، الأنانية.. قد لا تكون الدوائر كلها من مصدر واحد هو ذاتك لكن كما ترون الخمسة دوائر يجب أن تتقاطع وقد تظهر دائرة سادسة أيضا وهي الانحطاط كامتداد لدائرة الأنانية عندما تسمو بوضاعتها.. فلنتوقف لساعة واحدة لتناول الغذاء ثم نعود لختام محاضرتنا الذي سنعرف فيه اسم تلك المنطقة التي تتقاطع فيها "دوائر الحياة"".

(٧)

- أنت بربري..

يقولها ذلك الرجل البائس في اليوم التالي للمحاضرة وأنا أصعد إلى مزار الأكروبوليس الشهير على جبله الأشهر في أثينا فأتوقف قليلا لأنظر إليه.. بائس يمسك بآلة تشبه العود لكن ذراعها أكثر طولًا، ويعزف عليها لحنًا ما لقاء بضع سنتات يلقيها إليه العابرون. ملابسه قذرة، رائحته متسقة تمامًا مع ملابسه و قدمية السوداوين وأظافره المتكسرة وصوته المشروخ الذي هتكه الدخان و الخمر.

أنظر إليه ثم أتأمل الأشجار المتصاعدة مع الطريق حتى تلتقي بالسماء الصافية في أفق تقف فيه ثلاث فتيات في عمر الطفولة يرتدين قميصًا ورديا عليه شعار مدرسة ما ويجمعون معلومات من السياح يبدوا أنها لمشروع دراسي يقومون به. الرجل لاحظ وقوفي فأوقف عزفه و بصق على الأرض ثم أشار إلى صارخًا بصوت مرتفع و إنجليزية بشعة:

- **نعم أنا أحدثك أنت... أنت بربري..**

أنا بربري..؟ ربما يكون على حق. لو كان يقصد وصفًا على مستوى اللون فأنا أسمر أصلع الرأس تمتد بطني أمامي بكرش صغير وهذا قد يكون تصور ما بقي له من عقل عن البرابرة..

أما إن كان يقصد الوصف السلوكي فأنا كاذبٌ مدع علمٍ و إن حملت عشرات الشهادات العلمية و العالمية و مئات الشهادات مجهولة المصدر في التنمية البشرية التي أحاول أن أثبت بها دائرة حكمتي. ابتسمت عندما تذكرت صديقي في المدرسة الثانوية الذي تلقى ما نعتبره في مصر سبابا ويُذكر فيه "عضو لأمه" في سبة من زميل آخر فنظر زميلي الأول في بلاهة ورد:

- **لا..**

فقط "لا".. و هذا ما سأفعله.. لكني ضحكت قبلها ضحكة طويلة ساخرة، و بصقت أنا الآخر على الأرض و قلت :

- لا..

(٨)

"القاعدة هي الانطفاء و ليس التوهج، هذا عكس ما كنت سأقوله لو ألقيت تلك المحاضرة منذ بضعة أيام. توهجي كان انطفاءً لي ولآخرين، أنا الآن منطفئ وإن ظهرت متوهجًا. وكان حظ محاضرتكم أن جاءت في المرحلة الانتقالية نحو محاولة نجاة من توهجي المزيف.. تتقاطع دوائر الحياة الخمسة، لأن الحب، والعطاء، والأنانية، والحكمة والبؤس عندما تتداخل في حياة ما يجب أن تتقاطع فيما بينها في منطقة مشتركة.. حقيقة هندسية أعرفها كمهندس سابق، لكني بصفتي التي تعاقدتم معي لأحاضركم بها أجزم أنني لا أعرف.. لا أعرف ما يمكن أن أدعو مكان ذلك الالتقاء.

ربما تستطيع جورجينا إجابتي، لكني لا أستطيع الوصول إليها.. ربما يتمكن أحدكم من حله.."

شاهد مؤنس فيديو ختام المحاضرة الذي أرسله أحد الطلاب إليه مرفقًا إياها برسالة قصيرة مفادها أنها كانت أكثر المحضرات إمتاعًا في حياته. قاطعت خواطره جملة شريف الذي تطوع بتوصيله من المطار لمنزله في القاهرة:

- إيه يا عم الكلام الكبير دا..؟ أنت قلبت عميق و لا إيه..؟

ابتسم مؤنس و لم يعلق، فتابع شريف مربتًا على مقود سيارته الجديدة:

- إمبارح استلمت عزيزة، وجه في دماغي حاجة كدا وأنا سايقها وراجع من اسكندرية.. أول مرة أسوق جيب، ودا خلاني حاسس إني متميز. تخيل بقة لما تاخد منصب أو تبقى غني ممكن تحس بإيه..؟ ممكن تحط دا في محاضرة من محاضراتك الجاية.. تفتكر ممكن يحس بإيه لما يسوق عربية تخليه مرتفع عن بقية البشر..؟

ابتسم مؤنس و لم يعدل وضعية رأسه على مسند الكرسي مغمضًا عينيه..

- هايحس إنه قاعد في كرسي السواق، ماسك الدركسيون و بيسوق عربية.. بلاش أفورة.

تمت

الفهـــرس

تشنيكة (قصة قصيرة جدًا) ٩
فقاقيع..... ١١
الليلة الأربعمائة و ستة و خمسون بعد الألف..... ١٧
السيرة الذاتية لشعبانوف..... ٢٧
سرد تنازلي في يوم بارد ٤١
حفّارٌ.. و رمال.. و أشياء أخرى ٥٣
سحر مدفون ٦١
الزير عاصم..... ٦٩
في قهوة بعرة ٧٧
عاصفة ٨٧
زحام ٩١
مؤنس و دوائره..... ١٠١

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.